(١٣) وجوب أداء الأمانة .

(١٤) تحريم كتمان الشهادة .

(١٥) خاتمة ذلك كله الدعاء الذى طلب الينا أن ندعوه به .

وعلى الجملة فقد فصلت فيها الأحكام ، وضربت الأمثال ، وأقيمت الحجج ، ولم تشتمل سورة على مثل ما اشتملت عليه ، ومن ثم سميت فسطاط القرآن .

سـورة آل عمران

هذه السورة مدنية ، وعدد آياتها مائتان باتفاق العادّين .

ووجه اتصالها بما قبلها أمور :

(١) أن كلا منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به ـ فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبين بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

(٢) أن فى الأولى تذكيرا بخلق آدم ، وفى الثانية تذكيرا بخلق عيسى ، وتشبيه الثانى بالأول فى أنه جرى على غير سنة سابقة فى الخلق .

(٣) أن فى كل منهما محاجة لأهل الكتاب ، لكن فى الأولى إسهاب فى محاجة اليهود واختصار فى محاجة النصارى ، وفى الثانية عكس هذا ، لأن النصارى متأخرون فى الوجود عن اليهود ، فليكن الحديث معهم تاليا فى المرتبة للحديث الأول .

(٤) أن فى آخر كل منهما دعاء ، إلا أن الدعاء فى الأولى ينحو نحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ، ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا

بما يناسب بداءة الدين ، والدعاء فى الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك فى الآخرة .

(٥) أن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولى ، كأنها متممة لها ، فبدئت الأولى بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله واتقوا الله لعلكم تفلحون .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٣) إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

شرح المفردات

(الم) تقدم أن قلنا فى السورة قبلها إن الرأى الذى عليه المعول أن الحروف المقطعة التى وقعت فى أوائل السور هى حروف للتنبيه كألا ويا مما جاء فى أوائل الكلام لتنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها من حديث يستدعى العناية بفهمه ، وتقرأ بأسمائها ساكنة كما تقرأ أسماء العدد فيقال (ألف . لام . ميم) كما يقال (واحد . اثنان . ثلاثة) وتمد اللام والميم ، وإذا وصل به لفظ الجلالة جاز فى الميم المد والقصر ، وفتحها وطرح الهمزة من (الله) للتخفيف والإله هو المعبود ، والحى ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة ، والقيوم القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه ، ونزّل يفيد التدريج والقرآن نزل كذلك فى نَيْف وعشرين سنة على حسب الحوادث كما تقدم ، وعبر عن الوحى مرة بالتنزيل ، وأخرى بالإنزل للإشارة إلى أن منزلة الموحِى أعلى من الموحَى إليه ، ومعنى كونه بالحق أن كل ماجاء به من العقائد والأحكام والحكم والأخبار فهو حق لا شك فيه ، ما بين يديه هى الكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، والتوراة كلمة عبرية معناها الشريعة ، ويريد بها اليهود خمسة أسفار يقولون إن موسى كتبها ، وهى : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر تثنية الاشتراع ، ويريد بها النصارى جميع الكتب التى تسمى العهد العتيق ، وهى كتب الأنبياء وتاريخ قضاة بنى إسرائيل وملوكهم قبل المسيح ، وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معا وهو المعبر عنه بالإنجيل ، ويريد بها القرآن ما أنزل على موسى ليبلغه قومه ، والإنجيل كلمة يونانية معناها التعليم الجديد أو البشارة ، وتطلق عند النصارى على أربعة كتب تسمى بالأناجيل الأربعة وهى كتب مختصرة فى سيرة المسيح عليه السلام وشىء من تاريخه وتعاليمه ، وليس لها سند متصل عند أهلها وهم مختلفون فى تاريخ كتابتها على أقوال كثيرة ، وكتب العهد الجديد تطلق على هذه الكتب الأربعة مع كتاب

أعمال الرسل (الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا ، والإنجيل فى عرف القرآن هو ما أوحاه الله إلى رسوله عيسى عليه السلام ومنه البشارة بالنبى محمد وأنه هو الذى يتم الشريعة والأحكام ، والفرقان هو العقل الذى يفرق بين الحق والباطل ، وكل ما كان عن حضرة القدس يسمى إعطاؤه إنزالا ألا ترى إلى قوله تعالى « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » ، والانتقام من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنايته ، والتصوير جعل الشىء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف ، والأرحام واحدها رحم وهى مستودع الجنين من المرأة ، والمحكم من أحكم الشىء بمعنى وثقه وأتقنه ، والأم فى اللغة الأصل الذى يتكون منه الشىء ، والمتشابه يطلق تارة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضا ، وتارة أخرى على ما يشتبه من الأمور و يلتبس ، والزيغ الميل عن الاستواء والاستقامة إلى أحد الجانبين والمراد به هنا ميلهم عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، والتأويل من الأَوْل وهو الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذى يرجع إليه ، والراسخون فى العلم هم المتفقهون فى الدين ، ومن لدنك أى من عندك ، والمراد بالرحمة العناية الإلهية والتوفيق الذى لا يناله العبد بكسبه ، وجمع الناس حشرهم للحساب والجزاء ، لا ريب فيه أى أننا موقنون به لا نشك فى وقوعه لأنك أخبرت به وقولك الحق .

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نحو ستين راكبا ، وخاصموه فى عيسى بن مريم وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى

لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه و يحفظه و يرزقه ؟ قالوا بلى ، قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا لا ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى ، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذّى كما يغذى الصبي ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى ، قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا ، فأنزل الله ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى آخر تلك الآيات .

ووجه الرد عليهم فيها ـ أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادئ ذى بدء ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حيا قيوما أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب وأنزل التوراة ليبين أنه قد أنزل الوحى وشرع الشرائع قبل وجوده كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده ، فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء وإنما هو نبي مثلهم ، ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل ، وعيسى لم يكن واهبا للعقول ، ثم قال إنه لا يخفى عليه شيء ليرد على استدلالهم على ألوهية عسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى عليه شيء مطلقا سواء أكان فى هذا العالم أم غيره من العوالم السماوية ، وعيسى لم يكن كذلك ، ثم أبان أن الإله هو الذى يصور فى الأرحام ليرد على ولادة عيسى من غير أب ، إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الألوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق ، وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف يشاء ، وعيسى لم يصور أحدا فى رحم أمه ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد و بوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الكتاب وجعله قسمين ، محكم العبارة محفوظ من الاحتمال والاشتباه ، وهو الأصل الذى دعى الناس إلى تدبر معانيه والعمل به ،

و إليه يرجع فى فهم المتشابه ، ومتشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شىء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح كالاستواء على العرش وكون عيسى روح الله وكلمته ، ثم بين أن الناس فى هذا انقسموا فرقتين فرقة زائغة يرجعون فى تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، وفرقة يقولون آمنا به ونفوض علمه إلى ربنا ، وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية ، و يرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة .

الإيضاح

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) قد مر تفسير هذا بإيضاح أول آية الكرسى.

(نزل عليك الكتاب بالحق) أى أنه أوحى إليك هذا القرآن بالتدريج متصفا بالحق الذى لا شبهة فيه .

(مصدقا لما بين يديه) أى مبينا صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء السالفين ، فإنه أثبت الوحى وذكر أنه أرسل رسلا أوحى إليهم ، وهذا تصديق جملى لأصل الوحى إليهم ، لا تصديق تفصيلى لتلك الكتب التى عند الأمم التى تنمى إلى أولئك الأنبياء بمسائلها جميعها ، ألا ترى أن تصديقنا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى جميع ما أخبر به ، لا يلزم منه التصديق بكل ما فى كتب الحديث المروية عنه ، بل ماثبت منها صحته فقط .

(وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) أى وأنزل التوراة على موسى هدى للناس، وقد أخبر الكتاب الكريم أن قومه لم يحفظوها إذ قال: «وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» كما أخبر عنهم أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه فيما حفظوه واعتقدوه، والأسفار التى بين أيديهم تؤيد ذلك ، ففى سفر التثنية (فعند ما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوارة فى كتاب إلى تمامها ـ أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا ، خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم

ليكون هناك شاهدا عليكم ، لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ، ويصيبكم الشر فى آخر الأيام ، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم - إلى أن قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التى أنا أشهد عليكم بها اليوم ، لكى توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمرا باطلا عليكم ، بل هى حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتتملكوها ، وكذلك خبر موت موسى وكونه لم يقم فى بنى إسرائيل نبى مثله بعد .

فهذان الخبران عن كتابة موسى للتوراة وعن موته معدودان عندهم من التوراة وليسا من الشريعة المنزلة على موسى التى كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل كتبا كغيرهما بعده) .

إذا فالتوراة التى عندهم كتب تاريخية مشتملة على كثير من تلك الشريعة المنزلة ، والقرآن يثبت ذلك ، وأيضا ففقد كتاب الشريعة لأمة لا يجعلها تنسى جميع أحكام هذه الشريعة ، فما كتبه عزرا وغيره مشتمل على ما حفظ منها إلى عهده ، وعلى غيره من الأخبار ، وهذا كاف فى الاحتجاج على بنى إسرائيل بإقامة التوراة ، والشهادة بأن فيها حكم الله كما جاء فى سورة المائدة ، وأسفارها كلها كتبت بعد السَّبْى يرشد إلى ذلك كثرة الألفاظ البابلية التى جاءت فيها ، وقد اعترف علماء النصارى بفقد توراة موسى التى هى أصل دينهم ، فقد جاء فى كتاب خلاصة الأدلة السنية على صدق أصول الديانة المسيحية (والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية فى الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما خرَّب بُخْتُنَصَّرَ الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث كان جاريا بين اليهود على أن الكتب المقدسة فقدت ، وأن عزرا الكاتب الذى كان نبيا جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية ، ولكن من أين جمع عزرا تلك الكتب بعد فقدها ؟ وعلى أى شىء

اعتمد فى إصلاح غلطها ؟ فإن قالوا إنه بالإلهام فإنا نقول إن هذا مما يحتاج فيه إلى جمع ما فى أيدى الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، على أن علماء أوربا قالوا إن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة رجل واحد .

وأنزل الله الإنجيل على عيسى ، وأنبأ سبحانه بأن النصارى نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود ، بل هم أولى بذلك ، فإن التوراة كتبت زمن نزولها ، وكان ألوف الناس يقرءونها و يعملون بما فيها من شرائع وأحكام ثم فقدت ، ولكن الكثير من أحكامها كان محفوظا معروفا عندهم ، أما كتب النصارى فلم تعرف ولم تشتهر إلا فى القرن الرابع للمسيح ، لأن أتباعه كانوا مضطهدين بين اليهود والرومان ، حتى اعتنق قسطنطين النصرانية فظهرت كتبهم ، ومنها تواريخ المسيح المشتملة على بعض كلامه الذى هو إنجيله ، وكانت كثيرة فتحكم فيها الرؤساء حتى اتفقوا على أنها أربعة .

وخلاصة ذلك — أن الله أنزل التوراة والإنجيل لهداية من أنزلا عليهم إلى الحق ومن جملة ذلك الإيمان به صلوات الله عليه ، واتباعه حين يبعث ، فقد اشتملتا على البشارة به والحث على طاعته ـ ونسخ أحكامهما بالكتاب الذى أنزل عليه .

(وأنزل الفرقان) أى وأنزل العقل الذى يفرق بين الحق والباطل ، وجاء فى آية أخرى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) والميزان هو العدل .

فالله سبحانه قرن بالكتاب أمرين الفرقان الذى نفرق به الحق فى العقائد ونميزه عن الباطل ، والميزان وهو ما نعرف به الحقوق فى الأحكام ونعدل بين الناس .

فالخلاصة — أن ما يقوم عليه البرهان العقلى من عقائد وغيرها فهو حق منزل من عند الله وما قام به العدل فهو حكم منزل من عند الله وإن لم ينص عليه فى الكتاب ، فإن الله هو المنزل والمعطى للعقل والعدل ـ الفرقان والميزان ـ كما أنه سبحانه هو المنزل للكتاب ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

(إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد) أى إن الذين كفروا بآيات الله

الناطقة بتوحيده وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل ، فكذبوا بالقرآن أولا ثم بسائر الكتب تبعا لذلك ـ لهم عذاب شديد بما يلقى الكفر فى عقولهم من الخرافات والأباطيل التى تدنس نفوسهم ـ وتكون سبب عقابهم فى الدار الآخرة التى تغلب فيها الحياة الروحية على الحياة الجسدية المادية .

(والله عزيز ذو انتقام) أى أن الله بعزته ينفذ سنته ، وينتقم ممن خالفها بسلطانه الذى لا يعارض .

(إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) فينزل لعباده من الكتب مافيه صلاحهم إذا أقاموه ، ويعلم سرهم وجهرهم فلا يخفى عليه حال الصادق فى إيمانه، ولا حال الكافر ، ولا حال من استبطن النفاق وأظهر الإيمان ، ولا حال من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .

وفى التعبير بعدم خفاء شىء عليه ـ إشارة إلى أن علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين بل هو الغاية فى الوضوح وعدم الخفاء .

(هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) أى هو الذى يجعلكم على صور مختلفة متغايرة وأنتم فى الأرحام من النطف إلى العلق إلى المضغ ، ومن ذكورة وأنوثة، ومن حسن وقبح إلى غير ذلك ، وكل هذا على أتم ما يكون دقة ونظاما ، ومستحيل أن يكون هذا قد جاء من قبيل الاتفاق والمصادفة ، بل هو من صنع عليم خبير بالدقائق.

(لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فهو المنفرد بالإيجاد والتصوير ، العزيز الذى لايغلب على ما قضى به علمه وتعلقت به إرادته ، الحكيم المنزه عن العبث ، فهو يوجد الأشياء على مقتضى الحكمة ، ومن ثم خلقكم على هذا النمط البديع الذى لايتصور ما هو أدق منه وأحكم كما قيل « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) أى هو الذى أنزل عليك الكتاب منقسما إلى محكم العبارة ، بعيد من الاحتمال والاشتباه ، ومتشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شىء والعقل على خلافه ،

فتشابهت فيه الدلالة ولم يمكن الترجيح كالاستواء على العرش ، أو هو ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة .

وقد جاء وصف القرآن بالمحكم فى قوله : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » وهو إما بمعنى إحكام النظم وإتقانه ، وإما بمعنى الحكمة التى اشتملت عليها آياته ، ووصفه بالمتشابه فى قوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً » بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الهداية والسلامة من التناقض والتفاوت والاختلاف كما قال : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا » وقوله : « وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً » أى أن ما جيئوا به من الثمرات فى الآخرة يشبه ما رزقوا به من قبل فاشتبهوا فيه لهذا التشابه .

(فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) أى فأما الذين يميلون عن الحق ويتبعون أهواءهم الباطلة فينكرون المتشابه وينفرون الناس منه ويستعينون على ذلك بما فى غرائز الناس وطبائعهم من إنكار ما لم يصل إليه علمهم ولا يناله حسهم كالإحياء بعد الموت وجميع شئون العالم الأخروى ، ويأخذونه على ظاهره بدون نظر إلى الأصل المحكم ليفتنوا الناس بدعوتهم إلى أهوائهم ، فيقولون إن الله روح والمسيح روح منه ، فهو من جنسه ، وجنسه لا يتجزأ فهو هو ، ومعنى ابتغاء تأويله — أنهم يرجعونه إلى أهوائهم وتقاليدهم ، لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، فيحولون خبر الإحياء بعد الموت وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها ويصرفونها إلى معان من أحوال الناس فى الدنيا ليخرجوا الناس من دينهم ، والقرآن ملىء بالرد عليهم من نحو قوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) للعلماء فى تفسير هذه الآية رأيان :

(١) رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة ، وجعل قوله : والراسخون

فى العلم كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه لايعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(ا) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله .

(ب) أن قوله (يقولون آمنا به كل من عند ربنا) ظاهر فى التسليم المحض لله تعالى ، ومن عرف الشىء وفهمه لايعبر عنه بما يدل على التسليم المحض .

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبىّ بن كعب وعائشة .

(٢) ويرى بعض آخرون الوقف على لفظ (العلم) ويجعل قوله : (يقولون آمنا) كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ـ وإلى ذلك ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين فى العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة ، والراسخون فى العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذى لا اضطراب فيه ، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم ، وبأن قولهم (آمنا به كل من عند ربنا) لاينافى العلم ، فإنهم لرسوخهم فى العلم ووقوفهم على حق اليقين لا يضطربون ، بل يؤمنون بهذا وذاك ، لأن كلا منهما من عند الله ، وليس فى هذا من عجب ، فإن الجاهل فى اضطراب دائم ، والراسخ فى العلم ثابت العقيدة لا تشتبه عليه المسالك : ووجود المتشابه الذى يستأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة ـ ضرورى ، لأن من مقاصد الدين الإخبار بأحوالها ، فيجب الإيمان بما جاء به الرسول من ذلك ، وهو من عالم الغيب نؤمن به كما نؤمن بالملائكة والجن ، ولا يعلم تأويل ذلك أى حقيقة ما تئول إليه هذه الألفاظ إلا الله .

والراسخون فى العلم وغيرهم فى مثل هذا سواء ، لأن الراسخين يعرفون ما يقع تحت حكم الحس والعقل ، ولا يستشرفون بأنظارهم إلى معرفة حقيقة ما يخبر به

الرسل من عالم الغيب ، إذ هم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه ، إنما سبيله التسليم ، فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ، فالوقف فى مثل هذا لازم على لفظ الجلالة (الله) .

أما النوع الأول من المتشابه وهو الألفاظ التى لا يجوز فى العقل أخذها على ظاهرها من صفاته تعالى وصفات أنبيائه كقوله «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» فمثل هذا يمنع الدليل العقلى والدليل النقلى حمله على ظاهره ، ومثل هذا هو الذى يأتى فيه الخلاف فى علم الراسخين بتأويله ، فالذين نفوا عنهم علمهم به ، جعلوا حكمة تخصيص الراسخين بالتفويض والتسليم — هى تمييزهم بين الأمرين وإعطاء كل حكمه كما تقدم ، والذين أثبتوا لهم علمه ، يردون ما تشابه ظاهره من صفات الله وأنبيائه إلى أم الكتاب وهو المحكم ، ويأخذون منه ما يمكنهم من فهم المتشابه .

وعلى هذا فتخصيص الراسخين بهذا العلم لبيان أن غيرهم يمتنع عليه الخوض فيه ، ولا يجوز لهم التهجم عليه .

وقد يخطر على البال سؤال وهو ، لم كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكما يتساوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هاديا والمتشابه يحول دون الهداية لوقوع اللبس فى فهمه ، وفتح باب الفتنة فى تأويله لأهل التأويل ؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة منها .

(١) أن فى إنزال المتشابه امتحانا لقلوبنا فى التصديق به ، إذ لو كان ما جاء فى الكتاب معقولا واضحا لا شبهة فيه لأحد ، لما كان فى الإيمان به شىء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله .

(٢) ان فى وجوده فى القرآن حافزا لعقول المؤمنين إلى النظر فيه كيلا تضعف وتموت ، إذ السهل الجلى لا عمل للعقل فيه ، وإذا لم يجد العقل مجالا للبحث مات ، والدين أعز شىء على الإنسان فإذا ضعف عقله فى فهمه ضعف فى كل شىء ، ومن

ثم قال والراسخون فى العلم ، ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعمّ وأشمل ، فمن رحمته أن جعل فى الدين مجالا لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، إذ بحثه يستلزم النظر فى الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية ، ووجوه الدلالة ، ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله .

(٣) أن الأنبياء بعثوا إلى الناس كافة وفيهم العالم والجاهل والذكى والبليد ، وكان من المعانى الحكمُ الدقيقة التى لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها ، فجعل فهم هذا من حظ الخاصة ، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله ، والوقوف عند فهم المحكم ، ليكون لكل نصيبه على قدر استعداده ، فإطلاق كلمة الله وروح من الله على عيسى يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة ، ومن ثم فتن النصارى بمثل هذا التعبير إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ » .

(وما يذكر إلا أولو الألباب) أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة ، والعقول الراجحة ، التى امتازت بالتدبر والتفكر فى جميع الآيات المحكمة التى هى الأصول ، حتى إذا عرض لهم المتشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ويردوا المتشابه إليها ، ويقولوا فى المتشابه الذى هو نبأ عالم الغيب : إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق لا ينبغى للعقلاء أن يعتبروه .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) أى أن أولئك الراسخين فى العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة . والاستقامة على الطريقة فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فيخافون أن يقعوا فى الخطأ ، والخطأ قرين الخطر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يدعو يا مقلّب القلوب ، ثبت قلبى على دينك ، قلت : يا رسول الله

ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه .

(ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) أى ربنا إنك تجمع الناس للجزاء فى يوم لا شك فيه ، وإنا موقنون به ، لأنك أخبرت به وقولك الحق ، ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه ، وأنت لا تخلف وعدك .

وقد جاءوا بهذا الدعاء بعد الإيمان بالمتشابه ، ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم الرحمة فى ذلك اليوم ، وهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى منه .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

شرح المفردات

تغنى أى تنفع ، وقود (بفتح الواو) أى حطب ونحوه ، والدأب : العادة من دأب على العمل إذا جد فيه وتعب ثم غلب فى العادة ، والمهاد : الفراش ، يقال مهّد الرجل المهاد إذا بسطه ، والآية : العلامة على صدق ما يقول الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الدين الحق وقرر التوحيد ، وذكر الكتب الناطقة به ، وألمع إلى شأن القرآن الكريم و إيمان العلماء الراسخين به ـ شرع يذكر حال أهل الكفر والجحود ، و يبين أسباب اغترارهم بالباطل واستغنائهم عن الحق ، أو اشتغالهم عنه ، ومن أهم ذلك الأموال والأولاد ، وأرشد إلى أنها لا تغنى عنهم شيئا فى ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الناس ليحاسبهم على ما عملوا ، والكافرون فى أشد الحاجة إلى مثل هذه العظة ، لأن الجحود إنما يقع لغرور الناس بأنفسهم وأموالهم ، فيتوهمون الاستغناء عن الحق ، ويتبعون الهوى .

وقد ضرب الله مثلا لهؤلاء الكافرين الذين استغنوا بما أوتوا فى الدنيا عن الحق فعارضوه وناصبوا أهله العداء حتى ظفروا بهم مثل آل فرعون ومن قبله ممن كذبوا الرسل فقد أهلكهم الله ونصر موسى على آل فرعون ، ونصر الرسل ومن آمن معهم على أممهم لصلاحهم و إصلاحهم ، فالله لا يحابى ولا يظلم وهو شديد العقاب .

الإيضاح

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) أى إن الذين جحدوا ما قد عرفوه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سواء كانوا من بنى إسرائيل أم من كفار العرب ـ لن تنجيهم أموالهم التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار ، ولا أولادهم الذين يتناصرون بهم فى مهامّ أمورهم و يعولون عليهم فى الخطوب النازلة ، من عذاب الله شيئا ، وقد كانوا يقولون نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين فردّ الله عليهم بقوله : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » وسيكونون يوم القيامة حطباً لجهنم التى تسعر بهم .

ثم ضرب لهم مثلا لينبههم إلى ماحلّ بمن قبلهم من الأمم التى كانت أقوى منهم جنداً وأكثر عدداً لعلهم يتعظون فقال :

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) أى أن صنيع هؤلاء فى تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وكفرهم بشريعته ، كدأب آل فرعون مع موسى عليه السلام ، ودأب من قبلهم من الأمم ، كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، فأهلكهم ونصر الرسل ومن آمن معهم ، ولم يجدوا من بأس الله محيصا ولا مهربا ، إذ عقابه أثر طبيعى لاجتراح الذنوب وارتكاب الموبقات .

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم و بئس المهاد) المراد بالكافرين هنا اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبى الأمى الذى بشرنا به موسى ، وفى التوراة نعته ، وهموا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكّوا ، وقد كان بينهم و بين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكباً إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قَيْنُقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا له : لا يغرنّك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنّا نحن الناس فنزلت .

أى قل لأولئك اليهود إنكم ستغلبون فى الدنيا ، وسينفذ فيكم وعيدى ، وتساقون فى الآخرة إلى جهنم سوقا ، و بئس المهاد ما مهدتموه لأنفسكم .

وقد صدق الله وعده فقتل المسلمون بنى قُرَيظة الخائنين ، وأجلوا بنى النَّضير المنافقين ، وفتحوا خيبر وضربوا الجزية على من عداهم .

(قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين) أى قل لأولئك اليهود الذين غرتهم أموالهم ، واعتزوا بأولادهم وأنصارهم : لا تغرنكم كثرة العدد ، ولا المال والولد ، فليس هذا سبيل النصر والغلب ، فالحوادث التى تجرى فى الكون أعظم دليل على تفنيد ما تدعون .

انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا يوم بدر، فئة قليلة من المؤمنين تقاتل فى سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين .

وفى هذا عبرة أيما عبرة لذوى البصائر السليمة التى استعملت العقول فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور والاستفادة منها ، لا لمثل من نعتهم الله بقوله : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

ووجه العبرة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذنه تعالى ، وقوله تقاتل فى سبيل الله ترشد إلى السرّ فى هذا الفوز ، لأنه متى كان القتال فى هذا السبيل أى لحماية الحق والدفاع عن الدين وأهله ، فإن النفس تقبل عليه بكل ما أوتيت من قوة ، وما أمكنها من تدبير واستعداد ، عالماً منها بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فها أنت ذا ترى أن الله أمر المؤمنين بالثبات وبكثرة ذكره لشدّ العزائم والنهوض بالهمم ، وبالطاعة لرسوله ، وكان هو القائد فى تلك الواقعة ـ واقعة بدر ـ وطاعة القائد من أهم أسباب الظفر والنجاح فى ميدان القتال .

وقد امتثل المؤمنون ما أوصاهم به ربهم بقدر طاقتهم ، فوجد لديهم الاستعداد والعزيمة الصادقة ، فقاتلوا ثابتين واثقين بنصر الله ، فنصرهم وفاء بوعده « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

وغزوات الرسول وأصحابه تفسر ما ورد فى هذه الآيات ، ولما خالفوا ما أمروا به فى غزوة أحد نزل بهم ما نزل ، وفى هذا أكبر عبرة لمن تذكر واعتبر .

وقد روى أرباب السير أن جيش المسلمين كان ثلثمائة وثلاثة وعشرين رجلا ، سبعة وسبعون منهم من المهاجرين ، ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار ، وصاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب ، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة ، وكان فى العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو ، والآخر لمرثد بن أبى مرثد ، وكان معهم ست دروع وثمانية سيوف ، وجميع من قتل منهم يومئذ أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وأن جيش المشركين كان تسعمائة وخمسين مقاتلا ، رأسهم عقبة بن ربيعة ، وفيهم أبو سفيان وأبو جهل ، وكان فى معسكرهم من الخيل مائة فرس وسبعمائة بعير ، ومن الأسلحة ما لا يحصى عدًّا .

ومعنى قوله يرونهم مثليهم رأى العين ، أن المشركين رأوا المسلمين مثلى عدد المشركين أى قريبا من ألفين ـ وكانوا نحو ثلثمائة ـ أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم ، وكان ذلك مددا لهم من الله كما أمدهم بالملائكة ، بعد ما قللهم فى أعينهم حتى اجترءوا عليهم وتوجهوا إليهم كما جاء فى خطاب أهل بدر « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » ومعنى قوله رأى العين أنها رؤية مكشوفة لا لبس معها ولا خفاء كسائر المرئيات والمشاهدات .

(والله يؤيد بنصره من يشاء) أى والله يقوى بمعونته من يشاء كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدو .

(إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) أى إن فى هذا النصر مع قلة عددهم وكثرة عدوهم عظة لمن عقل وتدبر فعرف الحق وثلج قلبه ببرد اليقين .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه قبل هذا اشتغال الكافرين بالأموال والأولاد وإعراضهم عن الحق وانهماكهم فى اللذات ، ذكر هنا وجه غرورهم بذلك تحذيرا لهم من جعلها مطية لشهواتهم ، وتذكيرا لهم بأنه لاينبغى أن تجعل هى غاية الحياة ، فتشغلهم عن أعمال الآخرة التى جعلت الدنيا مزرعتها ، والوسيلة لكسب السعادة فيها .

الإيضاح

(زين للناس حب الشهوات) معنى تزيين حب الشهوات للناس ، أن حبها مستحسن لديهم لايرون فيه قبحاً ولا غضاضة ، ومن ثم لايكادون يرجعون عنه ، وهذا أقصى مراتب الحب ، وصاحبه قلما يفطن لقبحه أو ضرره إن كان قبيحاً أو ضارّا ، ولا يحب أن يرجع عنه وإن تأذى به ، وقد يحب الإنسان شيئا وهو يراه شينا لازينا ، وضارّا لا نافعا ، ويود لذلك لو لم يحبه كما يحب بعض الناس شرب الدخان على تأذيهم منه ، ومن أحب شيئا ولم يزين له يوشك أن يرجع عنه يوما ما ، ومن زين له حبه فلا يكاد يرجع عنه .

والشهوات واحدها شهوة وهى رغبة الناس فى الحصول على ما تستلذه ، والمراد بها هنا المشتهيات ، كما يقال هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهيه .

المعنى — أن الله فطر الناس على حب هذه الشهوات المبينة بعد كما قال : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » وقال : « كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ » .

وقد يسند التزيين إلى الشيطان بالوسوسة فى قبيح الأعمال كما قال تعالى : « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » .

ثم فصل هذه المشتهيات الستة التى ملأت قلوب الناس حبا فقال :

(من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

(فأولها) النساء وهن موضع الرغبة ومطمح الأنظار وإليهن تسكن النفوس كما قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال بكدهم وجدهم ، فهم القوامون عليهن لقوتهم وقدرتهم على حمايتهن ، فإسرافهم فى حبهن له الأثر العظيم فى شئون الأمة ، وفى إضاعة الحقوق أو حفظها .

وقدم حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول ـ لأن حب الولد لا يعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة ، فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده ، فكثير ممن تزوجوا بما فوق الواحدة ، وأفرطوا فى حب واحدة وملوا أخرى ـ أهملوا تربية أولاد المبغوضة وحرموهم سعة الرزق وقد وسعوه على أولاد المحبوبة ، وكم من غنىّ عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر ، وليس لهذا من سبب إلا حب والدهم لغير أمهم ، فهو يفعل ذلك للتقرب وابتغاء الزلفى إليها .

(وثانيها) البنون والمراد بهم الأولاد مطلقا كما قال تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » وفى الحديث الولد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ .

والعلة فى حب الزوجة وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل و بقاء النوع ، وهى حكمة مطردة فى غير الإنسان من الحيوانات الأخرى .

وحب البنين أقوى من حب البنات لأسباب كثيرة منها .

(١) أنهم عمود النسب الذى به تتصل سلسلة النسل ، و به يبقى ما يحرص عليه الإنسان من بقاء الذكر وحسن الأحدوثة بين الناس .

(٢) أمل الوالد فى كفالتهم له حين الحاجة إليه لضعف أو كبر .

(٣) أنه يرجى بهم من الشرف ما لا يرجى من الإناث كنبوغ فى علم أو عمل أو رياسة أو قيادة جيش للدفاع عن الوطن وحفظ كيان الأمة .

(٤) الشعور بأن الأنثى حين الكبر تنفصل من عشيرتها وتتصل بعشيرة أخرى

(وثالثها) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والعرب تريد بالقنطار المال الكثير ، والمقنطرة مأخوذة منه على سبيل التوكيد ، وقد جرت عادتهم بأن يصفوا الشيء بما يشتق منه مبالغة كما قالوا ألوف مؤلفة ، وظلّ ظليل ، وقيل المقنطرة المضروبة من دنانير ودراهم ، وقيل هى المنضدة فى وضعها .

وهذا التعبير يشعر بالكثرة التى تكون مظنة الافتتان ، والتى تشغل القلب للتمتع بها ، وتستغرق فى تدبيرها الوقت الكثير حتى لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلى نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة .

ومن ثم كان الأغنياء فى كل الأمم لدى بعثة الرسل أول الكافرين بهم المستكبرين عن تلبية دعوتهم ، وإن أجابوها وآمنوا فهم أقل الناس عملا وأكثرهم بعدا عن هدى الدين ، انظر إلى قوله تعالى « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا »

وحب المال مما أودع فى غرائز البشر واختلط بلحمهم ودمهم ، وسر هذا أنه وسيلة إلى جلب الرغائب ، وسبيل إلى نيل اللذات والشهوات ، ورغبات الإنسان غير محدودة ، ولذاته لا عدّ لها ولا حصر ، وكلما حصل على لذة طلب المزيد منها ، وما وصل إلى غاية فى جمع المال إلا تاقت نفسه إلى ما فوقها ، حتى لقد يبلغ به النهم فى جمعه أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد ، فيفتنّ فى الوصول إليه الفنون المختلفة ، والطرق التى تعنّ له ، ولا يبالى أمن حلال كسب أم من حرام ؟

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم

وادیان من ذهب لتمنى أن يكون لها ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .

ولقد أعمت فتنة المال كثيرا من الناس فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق الأمة والوطن ، بل عن حقوق من يعاملهم ، بل عن حقوق بيوتهم وعيالهم ، بل عن أنفسهم ، ومنهم من يقصر فى النفقة على نفسه وعياله بالقدر الذى يزرى بمروءته ، فيظهر بمظهر المسترذل بين الناس فى مأكله ومشربه وملبسه ، ومنهم من يثلم شرفه ويفتح ثغرة للطاعنين والقائلين فيه بالحق وبالباطل لأجل المال ، ومن ثم قالوا : (المال ميّال) .

(ورابعها) الخيل المسوّمة ، والمسوّمة هى التى ترعى فى الأودية والقيعان ، يقال سام الدابة : رعاها ، وأسامها : أخرجها إلى المرعى ، كما قال تعالى : « وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

وقال ابن جرير : المسومة المعلّمة من السُّومة وهى العلامة . قال النابغة :

بسُمْرٍ كالقداح مسوّمات عليها معشر أشباه جن

وكل من الخيل الراعية التى تقتنى للتجارة ، والمعلمة المطَهَّمة التى يقتنيها العظماء والأغنياء ـ من المتاع الذى يتنافس فيه الناس ويتفاخرون ، حتى لقد يتغالى بعضهم فى ذلك إلى حد هو أشبه بالجنون .

(وخامسها) الأنعام واحدها نعم وهى الإبل والبقر والغنم ، ولا تطلق النعم إلا على الإبل خاصة ، والأنعام مال أهل البادية ومنها تكون ثروتهم ومعايشهم ومرافقهم ، وبها تفاخرهم وتكاثرهم ، وقد امتنّ الله بها على عباده بقوله : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

(وسادسها) الحرث وهو الزرع والنبات على اختلاف أنواعه ، وعليه قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الأنواع السالفة، والانتفاع به أتمّ منها ، لكنه أخر عنها ، لأنه لما عم الارتفاق به كانت زينته فى القلوب أقل ، وقلما يكون الانتفاع به صادًّا عن الاستعداد لأعمال الآخرة أو مانعا من نصرة الحق .

وهناك ما هو أعم نفعا وأعظم فائدة فى الحياة وهو الضوء والهواء ، فلا يستغنى عنهما حىّ من الأحياء ، ومع ذلك قلما يلتفت الإنسان إليهما ولا يفكر فى غبطته بهما

(ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) المتاع ما يتمتع به ، والمآب المرجع من آب يئوب إذا رجع ، أى هذا الذى ذكر من الأصناف الستة المتقدمة هو ما يتمتع به الناس قليلا فى هذه الحياة الفانية ، ويجعلونه وسيلة فى معايشهم ، وسببا لقضاء شهواتهم ، وقد زين لهم حبها فى عاجل دنياهم ، والله عنده حسن المآب فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موتهم و بعثهم فلا ينبغى لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لخير الآجل .

فعلى المؤمن ألا يُفتنَ بهذه الشهوات ، ويجعلها أكبر همه ، والشغل الشاغل له عن آخرته ، فإذا استمتع بها بالقصد والاعتدال ووقف عند حدود الله سعد فى الدارين ووفق لخير الحياتين كما قال : « رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٤) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٥) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٥)

شرح المفردات

النبأ والإنباء لم يردا فى القرآن إلا لما له شأن عظيم كما قاله أبو البقاء فى الكليات ، والتقوى هى الإخبات لله والإعراض عما سواه، والمطهرة الخالية من الشوائب الجسمية والنفسية ، والرضوان (بضم الراء وكسرها) الرضا ، والصبر : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله ، والصدق يكون فى القول والعمل والوصف ؛ يقال فلان صادق فى قوله ، وصادق فى عمله ، وصادق فى حبه ، والقانتين : أى المداومين على الطاعة والعبادة ، والمستغفرين بالأسحار : أى المصلين وقت السحر .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالا ـ أمر رسوله بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والحث على فعل الخيرات .

الإيضاح

(قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أى قل لقومك وغيرهم : أأخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين إلى آخره وجىء بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه .

وقوله خير يشعر بأن تلك الشهوات خير فى ذاتها ، ولاشك فى ذلك إذ هى من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض فى سائر نعم الله على عباده كالحواس والعقول وغيرها ، فما مثل المسرف فى حب النساء حتى

يعطى امرأته حق غيرها ، أو يهمل لأجلها تربية ولده إلا مثل من يستعمل عقله فى استنباط الحيل ليبتزّ حقوق الناس ويؤذيهم ، فسلوك الناس فى الانتفاع بالنعم لايدل على أنها هى فى ذاتها شر ولا كون حبها شرا مع القصد والاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة .

ثم أجاب عن هـذا الاستفهام على طريق قولك هل أدلك على تاجر عظيم فى السوق يصدق فى المعاملة ، ويرخص السعر ويفى بالوعد ؟ ـ هو فلان فقال :

(للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) أى للذين أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه نوعان من الجزاء .

أحدهما جسمانى وهو الجنات وما فيها من النعيم والخيرات ، والأزواج المبرأة من العيوب التى فى نساء الدنيا خَلْقاً وخُلُقاً .

وثانيهما روحانى عقلى وهو رضوان الله الذى لايشوبه سخط ولا يعقبه غضب ، وهو أعظم اللذات كلها فى الآخرة عند المتقين .

وفى الآية إيماء إلى أن أهل الجنة مراتب وطبقات كما نرى ذلك فى الدنيا .

فمنهم من لايفقه لرضوان الله معنى ولا يكون ذلك باعثاً له على فعل الخير وترك الشر ، وإنما يفقه اللذات الحسية التى جرّبها فى الدنيا ، ففى مثلها يرغب .

ومنهم من ارتقى إدراكه ، وعظم قربه من ربه ، فيتمنى رضاه ويجعله الغاية القصوى ، والسعادة التى ليس وراءها سعادة .

وجاء فى معنى هذه الآية قوله تعالى : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » وقوله : « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ (الزراع) نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » .

(والله بصير بالعباد) أى أنه تعالى هو البصير بعباده ، الخبير بقرارة نفوسهم ودخائل أحوالهم ، العليم بسرهم ونجواهم ، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهو المجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

وقد ختم سبحانه هذه الآية بتلك الجملة ليحاسب الإنسان نفسه على التقوى ، فليس كل من ادّعاها لنفسه أو تحرك بها لسانه يعد متقيا ، وإنما المتقى من يعلم منه ربه التقوى .

ثم وصف المتقين الذين تتأثر قلوبهم بثمرات إيمانهم ، فتفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الإيمان حين الدعاء والابتهال فقال :

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) أى إن الذين اتقوا معاصى الله وتضرعوا إليه خاشعين يقولون مبتهلين متبتلين : ربنا إننا آمنا بما أنزلته على رسلك إيمانا يقينيا راسخا فى القلب مهيمناً على العقل له السلطان على أعمالنا البدنية التى لا تتحول عن طاعتك إلا لنسيان أو جهالة كغلبة انفعال يعرض ثم لا يلبث أن يزول ، ثم نقفو التوبة إثره لتمحوه كما أرشدت إلى ذلك بقولك : «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» وقوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

فاستر اللهم ذنوبنا بعفوك عنها وترك العقوبة عليها ، وادفع عنا عذاب النار إنك أنت الغفور الرحيم ، وقد خصوا هذا العذاب بالمسألة ، لأن من زحزح يومئذ عن النار فقد فاز بالنجاة وحسن المآب .

والخلاصة — أن مرادهم بالأيمان الذى أقروا به ـ هو الإيمان الصحيح الذى تصدر عنه آثاره من ترك المعاصى وفعل الصالحات ، إذ الإيمان اعتقاد وقول وعمل كما أجمع على ذلك السلف ويرشد إليه العقل والعلم بطبيعة البشر .

ثم ذكر من أوصافهم ما امتازوا به من غيرهم وبه استحقوا المثوبة عند ربهم فقال:

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) أى إن المتقين

جمعوا هـذه الصفات التى لكل منها درجة فى الفضل وشرف ورفعة وبها نالوا هذا الوعد وهى :

(١) الصبر وأكمل أنواعه الصبر على أداء الطاعات وترك المحرمات ، فإذا هبت أعاصير الشهوات وجمحت بالنفس إلى ارتكاب المعاصى ، فلا سبيل لردعها إلا بالصبر فهو الذى يثبت الإيمان، ويقف بها عند الحدود المشروعة، وكذلك هو الحافظ لشرف الإنسان فى الدنيا عند المكاره ، ولحقوق الناس أن تغتالها أيدى المطامع .

وهو كالشرط فى كل ما يذكر بعده من الصدق والقنوت والاستغفار بالأسحار

(٢) الصدق وهو منتهى الكمال ، وحسبك فى بيان فضيلته قوله تعالى : « وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » .

(٣) القنوت وهو المداومة على الطاعة والإخبات إلى الله مع الخشوع والخضوع ، وهو لب العبادة وروحها ، وبدونه تكون العبادة بلا روح وشجرة بلا ثمرة .

(٤) الإنفاق للمال فى جميع السبل التى حث عليها الدين ، سواء أكانت النفقة واجبة أم مستحبة ، فالإنفاق فى أعمال البر جميعاً مما حث عليه الشارع وندب إليه .

(٥) الاستغفار بالأسحار : أى التهجد فى آخر الليل وهو الوقت الذى يطيب فيه النوم ويشق القيام ، وتكون النفس فيه أصفى والقلب أفرغ من الشواغل .

والاستغفار المطلوب ما يقرن بالتوبة النصوح ، والعمل وفق حدود الدين ، ولا يكفى الاستغفار باللسان مع الإدمان على فعل المنكر ، فإن المستغفر من الذنب وهو مصرّ عليه كالمستهزئ بربه ، ولا يغتر بمثل هذا الاستغفار إلا جاهل بدينه ، أو غِرٌّ فى معاملته لربه ، ومن ثم أثر عن بعض الصوفية قوله : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلاَمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ، أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

شرح المفردات

يقال شهد الشيء إذا حضره وشاهده كما قال : « مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ » وقال « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » والشهادة بالشيء الإخبار به عن علم إما بالمشاهدة الحسية ، وإما بالمشاهدة المعنوية وهى الحجة والبرهان ، وأولو العلم هم أهل البرهان القادرون على الإقناع ، وهم يوجدون فى هذه الأمة وفى جميع الأمم السالفة ، بالقسط أى بالعدل فى الدين والشريعة وفى الكون والطبيعة ، والدين له فى اللغة عدة معان : منها الجزاء ، والطاعة والخضوع ، ومجموعة التكاليف التى بها يدين العباد الله ، ـ وما يكلف به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه و بيانه للناس ، ودينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع ، وملة باعتبار أنها أمليت وكتبت ـ والإسلام يأتى بمعنى الخضوع والاستسلام ، و بمعنى الأداء ، يقال أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه ، و بمعنى الدخول فى السلم أى الصلح والسلامة ، وتسمية الدين الحق إسلاما يناسب كل هذه المعانى وأولها أوفقها بالتسمية ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وحاجوك

جادلوك ، وأسلمت أى أخلصت ، والأميون مشركو العرب واحدهم أمىّ نسبوا إلى الأم لجهلهم كأنهم على الفطرة ، البلاغ أى التبليغ للناس .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه جزاء المتقين ، وشرح أوصافهم التى استحقوا بها هذا الجزاء ـ ذكر هنا أصول الإيمان وأسسه .

الإيضاح

(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) أى بين سبحانه وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والأنفس ، وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك ، والملائكة أخبروا الرسل بهذا وشهدوا شهادة مؤيدة بعلم ضرورى وهو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات ، وأولو العلم أخبروا بذلك وبينوه وشهدوا به شهادة مقرونة بالدلائل والحجج ، لأن العالم بالشىء لا تعوزه الحجة عليه .

وقوله بالقسط أى بالعدل فى الاعتقاد فالتوحيد هو الوسط بين إنكار الإله والشرك به ، والعدل فى العبادات والآداب والأعمال ، فعدل بين القوى الروحية والبدنية ، ، فأمر بشكره فى الصلاة وغيرها لترقية الروح وتزكية النفس وأباح كثيرا من الطيبات لحفظ البدن وتربيته ، ونهى عن الغلو فى الدين والإسراف فى حب الدنيا ، وبالعدل فى الأحكام فى نحو قوله : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وقوله « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

كما جعل سنن الخليقة قائمة على أساس العدل ، فمن نظر فى هذه السنن ونظمها الدقيقة تجلى له عدل الله فيها على أتم ما يكون وأوضحه .

فقيامه تعالى بالقسط فى كل هذا برهان على صدق شهادته تعالى فإن وحدة النظام فى هذا العالم تدل على وحدة واضعه .

ثم أكد كونه منفردا بالألوهية وقائما بالعدل بقوله :

(لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فإن العزة إشارة إلى كمال القدرة ، والحكمة إيماء إلى كمال العلم ، والقدرة لا تتم إلا بالتفرد والاستقلال ، والعدالة لا تكمل إلا بالاطلاع على المصالح والأحوال ، ومن كان كذلك فلا يغلبه أحد على ما قام به من سنن القسط ، ولا يخرج من الخليقة شىء عن حكمته البالغة .

(إن الدين عند الله الإسلام) أى إن جميع الملل والشرائع التى جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع ، و إن اختلفت فى بعض التكاليف وصور الأعمال و به كان الأنبياء يوصون ، فالمسلم الحقيقى من كان خالصا من شوائب الشرك ، مخلصا فى أعماله مع الإيمان من أى ملة كان ، وفى أى زمان وجد ، وهذا هو المراد بقوله عز اسمه « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .

ذاك أن الله شرع الدين لأمرين :

(١) تصفية الأرواح ، وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات ، بها تستطيع التصرف فى الكائنات ، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها .

(٢) إصلاح القلوب بحسن العمل و إخلاص النية لله وللناس .

وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلقى ، ليسهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية .

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله تعالى الذى شرع لنفسه ، و بعث به رسله ، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ، ولا يجزى إلا به .

وخطب على كرم الله وجهه قال : الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ،

واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، ثم قال : إن المؤمن أخذ دينه عن ربه ، ولم يأخذه عن رأيه ، إن المؤمن يعرف إيمانه فى عمله ، والكافر يعرف كفره بإنكاره ، أيها الناس دينكم دينكم ، فإن السيئة فيه خير من الحسنة فى غيره ، إن السيئة فيه تغفر ، وإن الحسنة فى غيره لا تقبل .

(وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) أى وما خرج أهل الكتاب من الإسلام الذى جاء به أنبياؤهم على نحو ما فصلناه آنفاً ، وصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون فى الدين ـ والدين واحد لامجال فيه للاختلاف والاقتتال ـ إلا بسبب البغى وتجاوز الحدود من الرؤساء ، ولولا بغيهم ونصرهم مذهباً على مذهب وتضليلهم من خالفهم بتفسيرهم نصوص الدين بالرأى والهوى وتأويل بعضه أو تحريفه ـ لما حدث هذا الاختلاف .

والتاريخ شهيد بأن الملوك والأحبار هم الذين جعلوا الدين المسيحى مذاهب ينقض بعضها بعضا ، وجعلوا أهله شيعا يفتك بعضهم ببعض ، فآريوس وأتباعه الذين دَعَوْا إلى التوحيد بعد فشوّ الشرك ، قد حكم عليهم المجمع الذى ألفه الملك قسطنطين سنة ٣٢٥ م بالإلحاد وإحراق كتبهم وتحريم اقتنائها ، ولما انتشرت تعاليمه فيما بعد ، حكم تيودوسيوس الثانى بإبادة الآريوسية بقانون رومانى صدر ٦٢٨ م ، وبقيت مذاهب التثليث تتطاحن ويغالب بعضها بعضا .

والعبرة من هذا القصص أن نبتعد عن الخلاف فى الدين والتفرق فيه إلى شيع ومذاهب كما فعل من قبلنا ، ولكن وا أسفا وقعنا فيما وقع فيه السالفون ، وتفرقنا طرائق قدداً ، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نزال نئنّ منه ، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته ، ويمدنا بروح من عنده ، فيسعى أهل الإيمان الصادق فى نبذ الاختلاف والشقاق ، والعودة إلى الوحدة والاتفاق ، حتى يعود

المسلمون إلى سيرتهم الأولى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان .

(ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) أى ومن يكفر بآيات الله الدالة على وجوب الاعتصام بالدين ووحدته وحرمة الاختلاف والتفرق فيه، و يترك الإذعان لها ـ فالله يجازيه و يعاقبه على ما اجترح من السيئات ، والله سريع الحساب .

والمراد بآيات الله هنا هى آياته التكوينية فى الأنفس والآفاق ويدخل فى ترك الإذعان لها صرفها عن وجهها لتوافق مذاهب أهل الزيغ والإلحاد والتشريعية التى أنزلها على رسله .

(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) أى فإن جادلك أهل الكتاب أو غيرهم ـ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو اليهود فى المدينة إلى ترك ما أحدثوه فى دينهم وتعودوه من التحريف والتأويل والرجوع إلى حقيقة الدين و إسلام الوجه لله والإخلاص له ـ بعد أن أقمت لهم البراهين والبينات ، وجئتهم بالحق ـ فقل لهم : أقبلت بعبادتى على ربى مخلصاً له ، معرضاً عما سواه ، أنا ومن اتبعنى من المؤمنين .

والخلاصة—أن لا فائدة من الجدل مع مثل هؤلاء، لأن الجدل لا يكون إلا فيما فيه خفاء ، أما وقد قامت الأدلة ، و بطلت شبهات الضالين ، فهو حينئذ مكابرة وعناد ، ولا يستحق منك إلا الإعراض ، وعدم إضاعة الوقت سدى .

(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟) أى قل لليهود والنصارى ومشركى العرب ـ وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة ، لأنهم هم الذين خوطبوا أولا بالدعوة ـ أأسلمتم كما أسلمتُ بعد أن وضحت لكم الحجة ، وجاءكم من البينات ما يوجبه و يقتضيه ، أم أنتم مصرون على كفركم وعدم تركم للعناد ؟

ومثل هذا مثل من يلخص مسألة لسائل ، ولا يدع طريقاً من طرق البيان إلا سلكه ، ثم يقول له : أفهمتها ؟

وفى ذلك تعيير لهم بالبلادة وجمود القريحة وتوبيخ لهم على العناد وقلة الإنصاف

(فإن أسلموا فقد اهتدوا) أى فإن أسلموا هذا الإسلام الذى هو روح الدين ، فقد فازوا بالحظ الأوفر ونجوا من مهاوى الضلال ، فإن إسلامهم على هـذا الوجه يستتبع اتباعك فيما جئت به ، لأن من هذه حاله فهو مستنير القلب ، متجه إلى طلب الحق ، فهو أقرب الناس إلى قبوله متى لاح له وظهر .

(و إن تولوا فإنما عليك البلاغ) أى و إن أعرضوا عن الاعتراف بما سألتهم عنه فلن يضيرك ذلك شيئا ، إذ ما عليك إلا البلاغ ، وقد أديته على أتم وجه وأكمله .

(والله بصير بالعباد) فهو أعلم بمن طُمِس على قلبه ، وجُعِل على بصره غشاوة ، فوقع اليأس من اهتدائه ، و بمن يرجى له الهداية والتوفيق بعد البلاغ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

شرح المفردات

المراد بالذين يكفرون هم اليهود خاصة ، وقوله بغير حق أى بغير شبهة لديهم ، وحبط العمل بطل ، والبشارة والبشرى الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه ، واستعمالها فى الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السابقة حقيقة الدين الذى يقبله الله ، وأنه الإسلام لوجهه تعالى ، وذكر أن اختلاف أهل الكتاب فيه إنما نشأ من البغى بعد أن جاءهم

العلم ، ثم ذكر محاجة أهل الكتاب جميعا ومشركى العرب للنبى صلى الله عليه وسلم ثم أردفه ببيان أن إعراضهم عن الحق لا يضيره شيئا ، فما عليه إلا البلاغ .

انتقل هنا إلى الكلام عن اليهود خاصة ، وعيّر الحاضرين منهم بما فعله السالفون من آبائهم ، لأن الأمة فى تكافلها ، وجرى لاحقها على أثر سابقها كأنها شخص واحد على ما سلف مثله فى سورة البقرة .

وقد يكون هذا كلاما مع اليهود الذين فى عصر التنزيل ، فإنهم هموا بقتل النبى صلى الله عليه وسلم زمن نزول الآية ، إذ السورة مدنية ، كما هم بذلك قومه الأميون بمكة من قبلُ ، وكان كل من الفريقين حربا له ، وعلى هذا فالآية فيمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب والأميين ، فكل منهما قاتله وقاتل الذين يأمرون بالقسط من المؤمنين .

الإيضاح

(إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق) أى إن الذين كفروا بآيات الله من اليهود كما تشهد بذلك كتبهم قبل القرآن ، وكان دأبهم قتل الأنبياء كزكريا ويحيى عليهما السلام بغير شبهة لديهم .

وفى ذكر هذا الوصف ما يزيد بشاعته وانقطاع العذر الذى ربما لجئوا إليه ، ويقرر أن العبرة فى مدح الشىء وذمه تدور مع الحق وجودا وعدما لا مع الأشخاص والأصناف .

أخرج ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبيا أو رجل أمر بمنكر ونهى عن معروف ثم قرأ الآية ، ثم قال : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة رجل وسبعون رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلوهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم .

(ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) أى ويقتلون الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدل فى كل شىء ويجعلونه روح الفضائل وقوامها .

ومرتبة هؤلاء فى الإرشاد تلى مرتبة الأنبياء ، وأثرهم فى ذلك يلى أثرهم ، لأن جميع الناس ينتفعون بهدى الأنبياء بقدر استعدادهم ، والحكماء ينتفع بهم الخاصة المستعدون لفهم العلوم العالية ، والنظريات العويصة .

انظر إلى الفارق بين دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وقد جبّت وثنية العرب فى الزمن القليل ، ودعوة فلاسفة اليونان إلى التوحيد وقد عجزت عن مثل ذلك أو ما يقاربه ، إذ لم يستجب لهم فيها فى الزمن الطويل إلا القليل من طلاب الفلسفة .

وسر هذا أن دعوة النبى يؤيدها الله بروح من عنده ، وتتعدد مظاهرها باعتبار المخاطبين فقد جاء فى الحديث « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » وأشارت إلى ذلك الآية الكريمة « ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » فالحكمة يدعى بها العقلاء وأرباب الفكر والنظر ، والموعظة يدعى بها العامة وذوو الأحلام الضعيفة ، والجدل بالتى هى أحسن لمن هم فى المرتبة الوسطى ، لم يرتقوا إلى ذروة الحكماء ، ولم ينزلوا إلى الدرجة السفلى ، فلا ينقادون إلى الموعظة كسابقيهم ، فلا بد لهم من الحسنى فى الجدل ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم .

والحكماء ليس لديهم إلا طريق واحد فى الدعوة إلى الحق والفضيلة ، والمحور الذى تدور عليه هو حب العدل والإنصاف فى الأفكار والأخلاق والآداب ، سواء أكان الحكيم الذى يدعو ينتسب إلى دين أم لا ، إذ هو إنما يبنى دعوته على الإقناع من طريق العقل على حسب ما وصل اليه علمه ، مع الإخلاص والصدق .

فالإقدام على قتل مثل هؤلاء جناية على العقل ، ومقت للعدل ، وكفى بذلك جرما ، وأعْظِمْ به خسرا .

(فبشرهم بعذاب أليم) أى أنبئ هؤلاء بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، ومن أحق بهذا العذاب من أولئك الطغاة الذين أسرفوا فى الشر وقتلوا النبيين أو كانت نفوسهم الكفوس من قتلوا ولم يمنعهم عن القتل إلا العجز ؟ كما قال تعالى : « وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ـ يحبسوك ـ أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

(أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) أى إن هؤلاء الذين فعلوا تلك القبائح يبطل الله أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنهم لم ينالوا بها حمدا ولا ثناء من الناس ، إذ هم كانوا على ضلال وباطل ، ولعنهم الله وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله ، وذلك هو حبوطها فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فلا ثواب لها ، بل قد أعد لأهلها العذاب الأليم ، والخلود فى الجحيم .

(وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من بأس الله وعذابه ، وقد نفى الله عنهم الناصر الذى يدفع العذاب عنهم لأنهم لما قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط وهم ناصرو الحق ، ولم يوجد فيهم ناصر يحول بينهم و بين قتلهم ـ جوزوا بعذاب لا ناصر لهم منه ولا معين .

وقد جعل الله وعيدهم ثلاثة أصناف .

(١) اجتماع أسباب الآلام والمكاره وهو العذاب الأليم .

(٢) زوال أسباب المنافع بحبوط الأعمال فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا بإبدال المدح بالذم والثناء باللعن ، وفى الأخرة بما أشار اليه قوله : « وقَدِمْنَا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(٣) دوام هذا العذاب وهو ما أشار إليه بقوله (وما لهم من ناصرين) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٥)

شرح المفردات

ألم تر استفهام لتعجيب النبي صلى الله عليه وسلم من حالهم ، والذين أوتوا هم اليهود والنصيب الحظ ، والكتاب التوراة ، ليحكم بينهم أى ليفصل بين اليهود والداعى لهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والتولى الإعراض بالبدن ، والإعراض يكون بالقلب ، والافتراء الكذب واليوم هو يوم الحساب والجزاء ، ما كسبت أى ما عملت من خير أو شر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقابح أعمال اليهود من توليهم عند الدعوة وقتلهم الأنبياء والآمرين بالقسط ، ليبين لرسوله أن إعراضهم عن دعوته ليس ببدع ولا غريب فيهم ، فذلك ديدنهم ودأبهم مع الأنبياء السالفين ، فلا تذهب نفسه عليهم حسرات ، ولا يحزنه إعراضهم — انتقل إلى خطاب رسوله ذاكرا أعجب شأن من شئونهم فى الدين لذلك العهد وهو أنهم لا يقبلون التحاكم إلى كتابهم ، وإذا دعوا إلى ذلك أعرضوا ، ثم أردفه بذكر سبب هذا وهو أنهم اغتروا باتصال نسبهم بالأنبياء ، وظنوا أن ذلك كاف فى نجاتهم ، فأصبحوا لا يبالون بارتكابهم للمعاصى ولا باجتراح الآثام ، ثم رد عليهم بأن الجزاء على الأعمال لا على مقدار الأنساب رفعة وضعة .

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدراس — مدرسة اليهود لدراسة التوراة — على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال على ملة

إبراهيم ودينه ، قالا فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلمُّوا إلى التوراة ، فهى بيننا و بينكم ، فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) أى ألم تر إلى هؤلاء الذين تستحق أن تعجب لهم من اليهود ـ كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ (وهذا دأب أرباب الديانات فى طور انحلالها واضمحلالها) .

وقد كانوا يتحاكمون إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهم ماضو العزيمة على قبول حكمه ، حتى إذا جاء على غير ما أحبوا خالفوه ونكصوا على أعقابهم ، فقد زنى بعض أشرافهم وحكموه فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم فتولوا وأعرضوا عن قبول حكمه ، إذ هم إنما فزعوا إليه ليخفف عنهم .

وقوله نصيبا من الكتاب هو ما يحفظونه من الكتاب الذى أوحاه الله إليهم وقد فقدوا سائره ، وهم لا يحسنون فهمه ولا يلتزمون العمل به .

فهذه الكتب الخمسة التى تسمى بالتوراة وتنسب إلى موسى عليه السلام ، لا يوجد دليل على أنه هو الذى كتبها ، إذ ليست محفوظة حتى يمكن الحكم عليها ، بل قام الدليل لدى بعض الباحثين من الأور بيين على أنها كتبت بعده بخمسمائة سنة ، كما لا تعرف اللغة التى كتبت بها أول مرة ، ولا دليل على أن موسى كان يعرف اللغة العبرية ، وإنما كانت لغته المصرية ، فأين التوراة التى كتبها بتلك اللغة ، ومن ترجمها ؟ .

(ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) أى إنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تتولى طائفة منهم بعد تردد وجذب ودفع ، وقد كان من دواعى الإيمان به ألا يترددوا فى إجابة الدعوة إليه ، إذ هو أصل دينهم ، وعليه بنيت عقيدتهم .

وفى هذا إيماء إلى أن هذا التولى لم يكن عارضا يرجى زواله ، بل ذلك دأبهم فى عامة أحوالهم .

وإنما جيء بكلمة (فريق) للإشارة إلى أن هذا التولى لم يكن وصفهم جميعاً فقد كان منهم طائفة يهدون بالحق ، ومنهم من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم .

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أى إن ذلك الإعراض والتولى إنما حدث لهم بسبب هـذا القول الذى رسخ اعتقادهم له ، فلم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب .

وخلاصة ذلك ـــ أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوها اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء ، واعتمادا على مجرد الانتساب إلى هـذا الدين ، واعتقدوا أن هذا كاف فى نجاتهم .

ومن استخف بوعيد الله زعما منه أنه غير نازل حتما بمن يستحقه ـ تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم بلا مبالاة على انتهاك حرمات الدين ، ويتهاون فى أداء الطاعات ، وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالى باجتراح السيئات ، وقد ظهر ذلك فى اليهود ثم فى النصارى ثم فى المسلمين ، فإن كثيرا من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب لـكبائر الإثم والفواحش إما أن تدركه الشفاعات أو تنجيه الـكفارات ، وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحساناً من الله وفضلا فإن فاته ذلك عذب على قدر خطيئته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالدون فى النار مهما كانت أعمالهم .

والقرآن قد ناط أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذى ذكر الله علاماته وصفات أهله ، وبالعمل الصالح والخلق الفاضل ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن كما جعل المغفرة لمن لم تحط به خطيئته .

أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم ، ولم يبق للدين سلطان على نفوسهم فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

والمراد بالأيام المعدودات هى أربعون يوما وهى مدة عبادتهم العجل ، وقال الأستاذ الإمام : إنه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شىء .

(وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) أى وقد أطمعهم وخدعهم ما كانوا يفترون على الله من نحو قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا وإن الله وعد يعقوب ألا يعذب أبناءه إلا تحلّة القسم (مدة قصيرة) .

والخلاصة — أن مثل هذا التحديد للعقوبة من الافتراء الذى كان منشأ غرورهم إذ هو مما لا يعرف بالرأى ولا بالفكر ، بل بالوحى من الله ، والعهد منه كما قال فى سورة البقرة « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ؟ » .

(فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أى فكيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء فى يوم لا ريب فيه ؟ .

وفى هذا الاستفهام تهويل لما سيكون ، واستعظام لما أعدّ لهم ، وأنهم سيقعون فيما لا حيلة فى دفعه والخلاص منه ، وأن ما حدّثوا به أنفسهم وسهلوه عليها بتعللاتهم وأباطيلهم — تطمّع بما لا يكون .

(ووفيت كل نفس ما كسبت) أى ورأت كل نفس ما عملت من خير أو شر محضرا لا نقص فيه ، ثم جوزيت عليه ، وكان منشأ سعادتها أو شقائها ، ولا يفيدهم الانتماء إلى دين معين أو مذهب خاص ، إذ لا امتياز لشعب على شعب ، وإن تسمى بعضهم بشعب الله ، ولا بين الأشخاص وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله ، فإن الجزاء يومئذ إنما يكون بما فى داخل الصدور ، لا بما فى خارجها ، وبما أحدثته الأعمال فيها من صفات حسنة أو قبيحة .

(وهم لا يظلمون) فهناك العدل الكامل ، فلا ينقص أحد من جزاء ما كسب ولا يزاد فى عذابه شىء ، والعبرة حينئذ بتأثير العمل فى النفس ، فإذا كان أثره السيئ قد أحاط بها ، واستغرق وجدانها ، كانت خالدة فى النار ، لأن عملها لم يدع للإيمان

أثراً صالحاً يعدّها لدار الكرامة ، وإن لم يبلغ هذا القدر بأن غلب عليها العمل الصالح ، أو استوى الأمران ، جوزيت على كل ، على حسب درجته ومقداره .

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

شرح المفردات

الملك السلطة والتصرف فى الأمر ، بيدك الخير أى بقدرتك التى لايقدر قدرها الخير كله تتصرف به أنت وحدك ، الولوج الدخول ، والإيلاج الإدخال ، ويراد به زيادة زمان النهار فى الليل والعكس بالعكس على حسب المطالع والمغارب فى أكثر البلدان .

المعنى الجملى

كان الكلام فى حال النبى صلى الله عليه وسلم مع المخاطبين بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب ، فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، كما أنكر ذلك أمثالهم على الأنبياء من قبل ، وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبى من غير آل إسرائيل ، فجاءت هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى مقام عناد المنكرين ، ومكابرة الجاحدين ، وتذكيراً له بقدرته تعالى على نصره و إعلاء دينه ، وكأنه يقول له : إذا تولى هؤلاء الجاحدون عنك ولم يقنعهم

البرهان ، فظل المشركون على جهلهم ، وأهل الكتاب فى غرورهم ، فعليك أن تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه بالدعاء والثناء ، وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل ما يشاء .

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك أنه لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع مع ذلك ، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الإيضاح

(قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) أى أنت ربنا سبحانك لك السلطان الأعلى والتصرف التام فى تدبير الأمور ، وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، فأنت تؤتى الملك من تشاء من عبادك ، إما تبعاً للنبوة كما وقع لآل إبراهيم ، وإما بالاستقلال على حسب السنن الحكيمة الموصلة إلى ذلك واتباع الأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب ، وتنزع الملك ممن تشاء بانحراف الناس عن الطريق السوى الحافظ للملك من العدل وحسن السياسة وإعداد القوة بقدر المستطاع ، كما نزعه من بنى إسرائيل وغيرهم بظلمهم وفسادهم .

(وتعز من تشاء وتذل من تشاء) للعزة آثار وللذل مثلها ، فالعزيز يكون نافذ الكلمة كثير الأعوان مالكا للقلوب بجاهه أو علمه النافع للناس ، مع بسطة فى الرزق وإحسان إلى الخلق .

والذليل يرضى بالضيم والمهانة ، ويضعف عن حماية الحريم ، ومقاومة العدو المهاجم ، ولا عز أعظم من عز الاجتماع والتعاون على نشر دعوة الحق ومقاومة الباطل إذا سار المجتمعون على السنن التى سنها الله لعباده ، فأعدوا لكل أمر عدته ، ولا عبرة بكثرة عدد الأمة وقلته فى تكوين العزة واجتماع القوة ، فقد كان المشركون فى مكة واليهود ومنافقو العرب فى المدينة يغترون بكثرتهم على النبى صلى الله عليه وسلم

والمؤمنين ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً كما قال تعالى : « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

والمشاهدة أكبر دليل على صدق هذا ، انظر إلى الشعوب الشرقية على كثرة عدد كل شعب منها ، كيف سادها وتحكم فيها ملوك الغرب على قلة عددهم ، وما ذاك إلا لفشو الجهل وتفرق الكلمة والتخاذل فى مقاومة الغاصب ، بل ممالأة بعضهم له إذا جاش بصدر بعضهم مقاومته ، والسعى فى إزالة طغيانه ، وتحكمه فى الرقاب والبلاد .

(بيدك الخير) أى بقدرتك الخير كله تتصرف به أنت وحدك على حسب مشيئتك ، ولا يملكه أحد سواك ، وخص الخير بالذكر مع أن كلا من الخير والشر بيده وقدرته كما يدل على ذلك قوله :

(إنك على كل شىء قدير) لأن المناسب للمقام ذكر الخير فقط ، فإنه ما أغرى أولئك الجاحدين وجعلهم يستهينون بالدعوة إلا فقر الداعى وضعف أتباعه وقلة عددهم ، فأمره الله أن يلجأ إلى مالك الملك الذى بيده الإعزاز ، وأن يذكره بأن الخير كله بيده ، فلا يعجزه أن يعطى نبيه والمؤمنين من السيادة و بسطة السلطان ما وعدهم ، وأن يؤتيهم من الخير ما لا يدور بخلد أولئك الذين استضعفوهم كما قال : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » .

(تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) أى إنك تدخل طائفة من الليل فى النهار ، فيقصر الليل من حيث يطول النهار ، وتدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيطول هذا من حيث يقصر ذاك .

والخلاصة — أنك بحكمتك فى خلق الأرض مكوّرة ، وجعل الشمس بنظام خاص تزيد فى أحد المَلَوَيْن (الليل والنهار) ما يكون سبباً فى نقص الآخر .

فليس بالمنكر بعد هذا أن تؤتى النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته من العرب وتنزعهما ممن تشاء كبنى إسرائيل ، فما مثل تصرفك فى شئون الناس إلا مثل تصرفك فى الليل والنهار .

(وتخرج الحى من الميت) كالعالم من الجاهل والمؤمن من الكافر (والحياة والموت معنويان) والنخلة من النواة والإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة (والحياة والموت حسيان)

(وتخرج الميت من الحى) كالجاهل من العالم ، والكافر من المؤمن ، والنواة من النخلة ، والبيضة من الطائر .

وقد أثبت علماء الطب أن فى النطفة والبيضة والنواة حياة ، ولكن هذه حياة اصطلاحية لأهل هذا الفن ، لا فى العرف العام الذى جاء به التنزيل .

قال الدكتور المرحوم عبد العزيز باشا اسماعيل فى كتابه الإسلام والطب الحديث: قيل فى تفسير ذلك كإنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ؛ ولكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير والله أعلم ، فإذا قيل : إن معنى الآية خلق آدم من طين أى خلق حى من ميت فهذا صحيح ، ولكنه ليس المقصود من الآية والله أعلم ، لأنها تشير إلى أن الخلق شىء عادى يحصل يوميا بدليل ورودها بعد (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) بالتعاقب ، وهذا شىء اعتيادى فالله يضرب لنا مثلا نشاهده يوميا .

والتفسير الحقيق هو (إخراج الحى من الميت) كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء شىء ميت ،ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن النعجة مثلا تتغذى بالنبات وتحوله إلى

لحمها ، وهذه أهم علامة على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى ، فهو الإفرازات مثل اللبن (وإن شئت فلحوم الحيوانات أيضا والنبات) فإن اللبن سائل ليس فيه شىء حى ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا ينمو الحى من الميت ويخرج الميت من الحى والله أعلم بمراده اهـ .

وقد استعمل القرآن لفظ الحياة فيما يقابل الموت ، سواء أكانت الحياة حسية أم معنوية وسواء أكان لفظ الميت مما يعيش ويحيا مثله أم لا .

وهذه العبارة ـ يخرج الحى من الميت ـ إلى آخره مثال ظاهر لكونه تعالى مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، فقد أخرج من العرب الأميين سيد المرسلين ، إذ أعدهم بارتقاء الفكر واستقلاله ، وبقوة الإرادة لأن يكونوا أقوى الأمم استعدادا لقبول هذا الدين الجديد الذى هدم بناء الاستعباد ، وأقام على أنقاضه صرح الاستقلال حين كان بنو إسرائيل وغيرهم يرسفون فى قيود التقليد ، وأغلال الاستبداد من الملوك والحكام .

وما الإعطاء لمن أعطى ، ونزع ما نزع إلا بإقامة السنن التى عليها مدار النظام ، وبها الإبداع والإحكام .

(وترزق من تشاء بغير حساب) أى أن الأمر كله بيده وليس أحد فوقه يحاسبه ، فهو القادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ، ويؤتيه العرب ويعزهم وذلك أهون شىء عليه .

وقد ورد لفظ الحساب فى القرءان على ثلاثة أوجه .

(١) بمعنى التعب كما فى هذه الآية .

(٢) بمعنى العدد كما فى قوله « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

(٣) بمعنى المطالبة كما فى قوله « فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

شرح المفردات

الأولياء واحدهم ولىّ وهو النصير ، تقاة أى اتقاء وخوفا ، ويحذركم أى يخوفكم ، والأمد المدة لها حد محدود .

المعنى الجملى

بعد أن نبه الله نبيه والمؤمنين إلى الالتجاء إليه ، مع الاعتراف بأن بيده الملك والعز والسلطان المطلق فى تصريف الكون فيعطى من يشاء ويمنع من يشاء — أرشدهم فى هذه الآيات إلى أن من الغرور أن يعتز أحد بغير الله ، وأن يلتجىء إلى غير جنابه .

وقد روى أرباب السير أن بعض الذين كانوا يدخلون فى الإسلام يغترون بعزة الكافرين وقوتهم ، فيوالونهم ويركنون إليهم ، وليس هذا بالمستغرب بل هو أمر طبيعى فى البشر .

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبى الحُقيق وقيس ابن زيد من اليهود يباطنون نفرا من الأنصار يفتنونهم عن دينهم ، فقال رفاعة

ابن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر ، اجتنبوا هؤلاء اليهود فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم (ملازمتهم) فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا يصطف المؤمنون الكافرين فيكاشفوهم بالأسرار الخاصة بالشئون الدينية ويقدموا مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، إذ فى هذا تفضيل لهم عليهم وإعانة للكفر على الإيمان .

وخلاصة هذا — نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين لقرابة أو صداقة جاهلية أو جوار أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة ، بل ينبغى أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب ، ومن ثم تكون موالاة المؤمنين أجدى لهم فى دينهم من موالاة الكافرين .

فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المسلمين فلا مانع منها ، فقد حالف النبى صلى الله عليه وسلم خزاعة وهم على شركهم ، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته فى أمور الدنيا .

(ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء) أى ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين فليس من ولاية الله فى شىء ، أى فليس بمطيع له ولا ناصر لدينه ، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة ، ويكون من الكافرين كما جاء فى الآية الأخرى « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » .

(إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم فى كل حال إلا فى حال الخوف من شىء تتقونه منهم ، فلكم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشىء ، إذ القاعدة الشرعية « أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين ، وإذا

فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة ، وليس لها أن تواليها فى شىء يضر بالمسلمين ، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف ، بل هى جائزة فى كل وقت .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التّقيَّة بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق لأجل توقى ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال .

فمن نطق بكلمة الكفر مكرها وقاية لنفسه من الهلاك ، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا بل يعذر كما فعل عمّار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرها وقلبه ملىء بالأيمان وفيه نزلت الآية « مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَـكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وكما عذر الصحابى الذى قال له مسيلمة : أتشهد أنى رسولى الله ؟ قال نعم فتركه وقتل رفيقه الذى سأله هذا السؤال فقال إنى أصمّ (ثلاثا) فقدّمه وقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه ، فهنيئاً له وأما الآخر فقبل رخصة الله ، فلا تبعة عليه .

وهى من الرخص لأجل الضرورات العارضة ، لا من أصول الدين المتبعة دائما ، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن كمال الإيمان ألا يخاف فى الله لومة لائم كما قال تعالى « فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » وقال : « فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتحملون الأذى فى سبيل دعوة الدين ويصبرون عليه .

ويدخل فى التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة وإلانة الكلام لهم والتبسم فى وجوههم وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ، ولا يعد هذا من الموالاة المنهى عنها ، بل هو مشروع ، فقد أخرج الطبرانى قوله صلى الله عليه وسلم

« ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة » وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة » ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج قلت يارسول الله قلتَ ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال يا عائشة : « إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه » رواه البخارى .

وروى قوله صلى الله عليه وسلم « إنا لنكشر (نبتسم) فى وجوه قوم و إن قلوبنا لتقليهم » (تبغضهم) .

(و يحذركم الله نفسه) أى عقاب نفسه ، وفائدة ذكر (نفسه) الإيماء إلى أن الوعيد صادر منه تعالى وهو القادر على إنفاذه ولا يعجزه شىء عنه .

وفى ذلك تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه ، لأن شدة العقاب على حسب قوة المعاقب وقدرته .

(و إلى الله المصير) أى و إلى جزاء الله مرجع الخلق ، فيجزى كلا بعمله .

(قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) أى إنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك يميل بكم إلى الكفر جازاكم عليه ، و إن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ولم يؤاخذكم على عمل لا جريمة فيه على الدين ولا على أهله ، وهو إنما يجازيكم على حسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض ، لأنه الخالق لها كما قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

(والله على كل شىء قدير) فهو يقدر على عقوبتكم ، فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه ، إذ ما من معصية خفيّة كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب عليها .

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً) أى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير حاضراً لديها ،

فيكون ذلك غبطة وسروراً لها ، وتنعم بما أحسنت ، وتبتئس المسيئة وتغتم بما أساءت وتود أن ما عملت من السوء كان بعيدا عنها لم تره حتى لا تؤاخذ بجريرته .

ومعنى كونه محضرا أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لها .

(ويحذركم الله نفسه) أى احذروا من سخط الله بترجيح جانب الخير وعمله ، على ما يزينه لكم الشيطان من عمل السوء وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

(والله رءوف بالعباد) قال الحسن البصرى : ومن رأفته أن حذرهم نفسه ، وعرفهم كمال علمه وقدرته ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه اه .

ومن رأفته أيضا أن جعل الفطرة الإنسانية ميالة بطبعها إلى الخير ، مبغضة لما يعرض لها من الشر ، وأن جعل أثر الشر فى النفس قابلا للمحو بالتوبة والعمل الصالح.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

شرح المفردات

المحبة ميل النفس إلى الشىء لكمال أدركته فيه ، فيدعوها ذلك إلى التقرب إليه ، يغفر لكم أى يتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة ، فإن تولوا أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قبل هذا جلال سلطانه وعظيم كماله ، ثم نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأكد ذلك بالوعيد الشديد ، ذكر هنا أن طريق محبته متابعة رسوله وامتثال

أوامره التى جاء بها ، واجتناب ما نهى عنه ، وبذا يكون المرء أهلا لمحبته ، ومستحقا لغفران ذنوبه .

روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب ابن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان ، فقالوا « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إنى رسول الله إليكم أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعونى وامتثلوا أمرى يحببكم الله ويرض عنكم .

الإيضاح

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) أى قل لهم : إن كنتم تريدون طاعة الله وترغبون فى العمل بما يقرب إليه طلباً للثواب فيما عنده ، فاتبعونى بامتثال ما نزل به الوحى منه إلىّ ، يرض الله عنكم ويتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة ، والاعتقادات الباطلة ، ويبوئكم فى جوار قدسه ، إذ فى هذا الاتباع اعتقاد الحق والعمل الصالح ، وهما يزيلان من النفس آثار المعاصى والرذائل ، ويمحوان منها ظلمة الباطل ، والمغفرة أثر ذلك .

وهذا حجة على من يدعى محبة الله فى كل زمان وأعماله تكذب ما يقول ، إذ كيف يجتمع حب مع جهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه ، فهو كما قال الورّاق :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

(والله غفور رحيم) لمن تحبب إليه بطاعته ، وتقرب إليه باتباع نبيه ، إذ فى هذا تزكية للنفس بصالح العمل ، فيغفر لها ما فرط من زلاتها ، ويتجاوز عن سيئاتها .

روى أنه لما نزل قوله (قل إن كنتم تحبون الله ...) قال عبد الله بن أبىّ : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبّ النصارى عيسى فنزل قوله :

(قل أطيعوا الله والرسول) أى قل لهم : أطيعوا الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأطيعوا رسوله باتباع سنته ، والاهتداء بهديه .

وفى هذا إرشاد إلى أن الله إنما أوجب عليكم متابعته لأنه رسوله ، لا كما يقول النصارى فى عيسى .

(فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غرورا بدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه - فإن الله لايحب الكافرين ، الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح فى آياته ، وعما أنزله على رسوله ، فلا يرضى عنهم ، بل يبعدهم عن جوار قدسه وحظيرة عزته ، و يسخط عليهم يوم يرضى عن المؤمنين به المطيعين لنبيه ، المتبعين لما جاء به من عند ربه

إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

شرح المفردات

الاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء ، والذرية فى أصل اللغة الصغار من الأولاد ، ثم استعملت عرفا فى الصغار والكبار ، وللواحد والكثير ، والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه ، والمحرر المخصص للعبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر ، والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا والقبول ، أعيذها بك أى أمنعها وأجيرها بحفظك وأصل العوذ الالتجاء إلى سواك والتعلق به ، يقال عاذ بفلان إذا استجار به ، والرجيم أى المرجوم المطرود من الخير ، ومريم بالعبرية خادم الرب ، وتقبل الشيء وقبله أى رضيه لنفسه ، وأنبتها أى رباها بما يصلح أحوالها ، وكفلها زكريا أى وجعل زكريا كافلا لها ، وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام ، والمحراب هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد ، أنى لك هذا أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط وجدب ، بغير حساب أى بغير عد ولا إحصاء لكثرته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الدين الحق هو الإسلام والتوحيد ، وأن اختلاف أهل الكتاب فيه إنما هو للبغى والحسد ، وأن الفوز والفلاح منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته ـ ذكر هنا من أحبهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون للناس طريق محبته ، وهى الإيمان به مع طاعته والعمل بما يرضيه .

الإيضاح

(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) أى إن الله اختار هؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة والرسالة فيهم .

فأولهم آدم وهو أبو البشر اصطفاه ربه واجتباه كما قال تعالى : « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » وكان من ذريته النبيون والمرسلون .

وثانيهم نوح وهو الأب الثانى للبشر ، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله فى الفلك العظيم ، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت فى البلاد وفشت فيهم الوثنية .

فظهر إبراهيم صلوات الله عليه نبيا مرسلا ، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون من ذريته وآله كاسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وكان من أرفع أولاده قدرا وأنبههم ذكرا آل عمران ، وهم عيسى وأمه مريم بنة عمران ، وينتهى نسبها إلى يعقوب صلوات الله عليه ، وختمت النبوة بولد اسماعيل محمد صلوات الله وسلامه عليه .

(ذرية بعضها من بعض) أى إن الألين ذرية واحدة متشعب بعضها من بعض ، فآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحق وأولادهما من نسل إبراهيم ، وإبراهيم من نسل نوح ، ونوح من آدم .

وآل عمران وهم موسى وهرون وعيسى وأمه من ذرية إبراهيم ونوح وآدم .

وقد يكون المراد بكون بعضها من بعض أنهم أشباه وأمثال فى الخير والفضيلة التى كانت سببا فى اصطفائهم ، على نحو قوله تعالى « الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » .

وهؤلاء الذرية هم الذين ذكرهم الله فى سياق الكلام على إبراهيم بقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَرُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ

وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

(والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) أى إنه تعالى كان سميعا لقول ابنة عمران عالما بنيتها حين ناجت ربها وهى حامل بنذر ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس ، و بثنائها عليه حين المناجاة بأنه السميع لدعائها وضراعتها ، العليم بصحة نيتها و إخلاصها ، وهذا يستدعى تقبل الدعاء ، ورجاء الإجابة له تفضلا منه و إحسانا .

وقد جاء ذكر عمران فى هذه الآيات مرتين ، فعمران الأول أبو موسى عليه السلام ، والثانى أبو مريم و بينهما نحو ألف وثمانمائة سنة على وجه التقريب .

(فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى) أى فلما وضعت بنتا تحسرت وتفجعت على ما رأت من خيبة رجائها وانقطاع حبل أملها ، فإنها نذرت تحرير ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس والانقطاع للعبادة ، والأنثى لا تصلح لذلك .

(والله أعلم بما وضعت) أى والله أعلم بمكانة الأنثى التى وضعتها ، وأنها خير من كثير من الذكور .

وفى هذا تعظيم لهذه المولودة وتفخيم شأنها ، ودفع ما يتوهم من قولها الدال على انحطاطها عن مرتبة الذكور .

(وليس الذكر كالأنثى) أى وليس الذكر الذى طلبت وتمنت كالأنثى التى وضعت ، بل هى خير مما كانت ترجوه من الذكران .

(و إنى سميتها مريم و إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أى و إنى غير راجعة عما انتويته من خدمتها بيت المقدس و إن كانت أنثى فإن لم تكن جديرة بسدانته فلتكن من العابدات القانتات ، و إنى أجيرها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كل بنى آدم

يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » والمراد أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها ، فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة ، ونحوه حديث شق الصدر وغسل القلب بعد استخراج حظ الشيطان منه إذ معناه أنه لم يبق للشيطان نصيب من قلبه صلى الله عليه وسلم ولو بالوسوسة .

(فتقبلها ربها بقبول حسن) أى فتقبل مريم من أمها ورضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها ، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة البيت .

(وأنبتها نباتا حسنا) أى رباها ونماها بما يصلح أحوالها ، كما يربى النبات فى الأرض الصالحة بعد تعهد الزارع إياه بالسقى وقلع ما يضعفه من النبات الطفيلى .

وهذه التربية تشمل التربية الروحية والجسدية ، فقد نمى جسدها فكانت خير لداتها جسما وقوة ، كما نماها صلاحا وعفة وسداد رأى .

(وكفلها زكريا) أى ضمها إليه وجعله كافلا لمصالحها .

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) أى كلما دخل زكريا محرابها وجد ألوانا من الطعام لم تكن توجد فى مثل تلك الأحيان ، روى أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف ، وليس لدينا مستند صحيح من كتاب أو سنة يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية .

(قال يا مريم أنى لك هذا؟) أى قال من أين لك هذا والأيام أيام جدب وقحط .

(قالت هو من عند الله) الذى يرزق الناس جميعا بتسخير بعضهم لبعض ، وقد جرى العرف فى كل زمان بإضافة الرزق إلى الله ، وليس فى هذا دلالة على أنه من خوارق العادات .

وسيق هذا القصص لتقرير نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب إسرائيل ، ودحض شبهة المشركين الذين أنكروها لأنه بشر .

و بيان هذا أن الله اصطفى آدم وسخر له ما فى الأرض من حيوان ونبات وجماد واصطفى نوحا وجعله أبا البشر الثانى ، واصطفى إبراهيم وآله على البشر ، والعرب أهل الكتاب يعرفون ذلك ، والأولون يفخرون بأنهم من ولد إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، والآخرون يفخرون باصطفاء آل عمران من بنى إسرائيل حفيد إبراهيم ، وهؤلاء وأولئك يعلمون أنه اصطفى هؤلاء بمحض مشيئته تفضلا منه و إحسانا ، و إذا فما الذى يمنع من أن يصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على العالمين كما اصطفى أولئك ، فالله يصطفى من خلقه من يشاء ، وقد اصطفاه وجعله هاديا للناس مخرجا لهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الحق واليقين ، ولم يكن أثر غيره من آل إبراهيم وآل عمران فى الهداية أظهر من أثره .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

شرح المفردات

الذرية الولد ، وتقع على الواحد والكثير ، والطيب ما تستطاب أفعاله وأخلاقه ، سميع الدعاء أى مجيبه كما يقال : سمع الله لمن حمده ، إذ من لم يجب فكأنه لم يسمع ،

وكلمة الله عيسى عليه السلام ، والسيد الرئيس يسود قومه ، والحصور من الحصر وهو الحبس أى يحبس نفسه و يمنعها مما ينافى الفضل والكمال ، من الصالحين أى من أصلابهم ، والصلاح صفة تجمع الخير كله ، أنى يكون لى؟ أى كيف يحصل لى ، بلغنى الكبر ، أى أدركنى كبر السن وأثر فى ، عاقر أى عقيم لا تلد ، آية أى علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر ، ألا تكلم الناس أى لا تستطيع الكلام ، والرمز الإشارة بيد أو رأس أو غيرهما ، وسمى الرمز كلاما لأنه يفيد مايفيده الكلام و يدل على مادل عليه ، والعشى الوقت من الزوال إلى الغروب ، والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

الإيضاح

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) أى فى هذا المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر ، دعا ربه بهذا الدعاء ، فإنه حين رأى حسن حالها ومعرفتها بالله تمنى أن يكون له ولد صالح مثلها هبة وفضلا من عنده ، فرؤية الأولاد النجباء مما تشوق نفس الناظرين إليهم وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم .

(فنادته الملائكة) أى ناداه جبريل عليه السلام كما قال به جمهور من المفسرين ، كما يقال خرج فلان على بغال البريد ، وركب السفن ، وهو إنما ركب بغلا واحد وسفينة واحدة ، و يقال ممن سمعت هذا الخبر؟ فتقول من الناس ، وأنت إنما سمعته من واحد .

و يرى ابن جرير فى جماعة آخرين أن المراد جماعة الملائكة إذ لا ضرورة تدعو إلى التأويل ، وبهذا قال قتادة وعكرمة ومجاهد .

(وهو قائم يصلى فى المحراب) أى نادته الملائكة على الفور وهو يدعو بذلك الدعاء الذى فصل فى سورة مريم .

(أن الله يبشرك بيحيى) أى نادته بهذه البشرى ، وقوله بيحيى أى بولد اسمه يحيى كما قال فى سورة مريم « إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى » وهو معرّب يوحنا ، فى إنجيل متى : إنه يدعى يوحنا المعمدانى ، لأنه كان « يعمِّد » الناس فى زمانه .

والاسم العربى من مادة الحياة وإليه يشير القائل فى الرثاء :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن لأمر قضاه الله فى الناس من بد

فهو يشعر بأنه يحيا حياة طيبة بأن يكون وارثا لوالده ولآل يعقوب ما كان فيهم من الفضل والنبوة .

(مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) أى مصدقا بعيسى الذى ولد بكلمة الله (كن فيكون) لا بالسنة العامة فى توالد البشر ، وهى أن يكون الولد من أب وأم ، وهو سيد يفوق قومه والناس جميعا فى الشرف والصلاح وعمل الخير ، وهو حصور مانع نفسه من شهواتها ، وسيكون نبيا يوحى إليه إذا هو بلغ سن النبوة ، ناشئا من أصلاب قوم صالحين ، ولا غرو فهو من أصلاب الأنبياء صلوات الله عليهم .

روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب ، فقال : ما للعب خلقت ثم سأل ربه سؤال استبعاد وتعجب أنّى يكون له ولد وهو وامرأته على تلك الحال (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟) قال الأستاذ الإمام : إن زكريا لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم من كمال إيمانها ، وحسن حالها ، واعتقادها أن المسخر لها ، والرازق لما عندها هو من يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته ، وإنما يكون الدعاء مستجابا إذا جرى به اللسان بتلقين القلب ، حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب .

ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن

بسماع ندائه واستجابة دعائه ـ سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة ، وهى على غير السنة الكونية ، فأجابه بقوله :

(قال كذلك الله يفعل ما يشاء) أى قال تعالى بتبليغ ملائكته : كذلك الله يفعل ما يشاء ، فمتى شاء أمرا أوجد له سببه أو خلقه بغير الأسباب المعروفة ، فلا يحول دون مشيئته شىء ، فنفوِّض إليه الأمر ولا تسأل عن الكيفية ، فلا سبيل لك للوصول إلى معرفتها .

(قال رب اجعل لى آية) أى قال : رب اجعل لى علامة تدلنى على الحمل ، وقد سأل ذلك استعجالا للسرور قاله الحسن البصرى ، وقيل : ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها ، ولا يؤخره حتى يظهر ظهورا معتادا .

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) أى علامة ذلك ألا تقدر على تكليم الناس ، بل تعجز عن خطابهم بحصر يعترى لسانك إذا أردته ، ثلاثة أيام متوالية مع لياليها ، إلا بإشارة بيد أو رأس أو نحوها ، ولا تعجز عن ذكر الله وتسبيحه ، لتكون المدة كلها مشغولة بالذكر قضاء لحق الشكر .

(واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار) أى واذكره ذكرا كثيرا فى أيام الحُبْسة شكرا له ، وسبحه فى الصباح والمساء .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

شرح المفردات

الاصطفاء الأول قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال ، والتطهير يعم التطهير الحسي كعدم الحيض والنفاس و بذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد ، والتطهير المعنوى كالبعد عن سفساف الأخلاق وذميم الصفات ، والاصطفاء الثانى بما اختصت به من ولادة نبى من غير أن يمسها رجل ، وهو اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل هى مهيأة ومعدة له ، وفيه شهادة ببراءتها مما قذفها به اليهود ، والقنوت الطاعة مع الخضوع ، والسجود التذلل ، والركوع الانحناء والمراد لازمه وهو التواضع والخشوع فى العبادة ، والوحى جاء فى القرآن :

(١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى : « نُوحِي إِلَيْهِمْ » .

(٢) وللإلهام كما قال تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى » .

(٣) ولإلقاء المعنى المراد فى النفس كما قال تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » .

(٤) وللإشارة كما قال تعالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

فالوحى تعريف الموحى إليه بأمر خفى من إشارة أو كتابة أو غيرهما ، والأقلام القداح المبرية وتسمى السهام ، والأزلام التى يضربون بها القرعة و يقامرون بها ، و يختصمون أى يتنازعون فى كفالتها .

المعنى الجملى

هذا عود على بدء فيما يتعلق باصطفاء آل عمران ، إثر ذكر طرف من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى اقتضى المقام ذكره كما علمت ذلك مما سلف .

الإيضاح

(و إذ قالت الملائكة) المراد بالملائكة جبريل عليه السلام بدليل قوله فى سورة مريم : « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا » وكلام جبريل معها لم يكن وحياً إليها فإن الله يقول : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي

إِلَيْهِمْ » وإنما هو إلهام بما لها من المكانة عند الله ، وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والطاعة له ، وذلك مما يزيدها محافظة على الكرامة ، وتعلقا بالكمال وتباعدا من النقص .

(يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) أى إن الله اختار خدمتك لبيت المقدس ، وبرأك من العيوب الحسية والمعنوية ، واختصك بولادة نبى دون أن يمسسك رجل ، وفضلك على جميع النساء فى كل الأعصار ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » ، أو المراد نساء زمانها ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كمل من نساء العالمين أربع ، مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة » .

وبعد أن بين اختصاصها بهذه المزايا والفضائل أوجب عليها طاعته شكرا لهذه النعم فقال :

(يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) أى أطيعى ربك وتذللى له وصلى مع المصلين فى المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابها .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى هذا الذى قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ، من الأخبار التى لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأها فى كتاب ، ولا علمكها معلم ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك ، وإلزاما لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين .

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) أى وما كنت حاضرا لديهم حين يضربون بسهامهم القرعة ، وينظرون ليعلموا أيهم يكون كافلا لمريم بوساطة هذا الاقتراع ، وقد قرعهم زكريا فكان كافلها .

(وما كنت لديهم إذ يختصمون) أى وما كنت شاهدا تنازعهم وتخاصمهم فى كفالتها ، ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة ، والمتنازعون كانوا من الحواص وأهل

الفضل والدين ، ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها ، إما لأن عمران كان رئيسا لهم فأرادوا مكافأته قياما ببعض ما يجب له من الحقوق ، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم ، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب دينى إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة .

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ أخبار القوم لأنه أمى ، ولم يروها سماعا عن أحد كما يعترف بذلك منكرو نبوته ، لأنه نشأ بين قوم أميين ، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحى أو المشاهدة ، والوحى ينكرونه ، فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التى نفاها على سبيل التهكم لاستحالتها .

ونظير هذه الآية قوله عقب قصة نوح عليه السلام « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا » وقوله بعد قصة موسى وشعيب « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ » .

والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيما وافق فيه القرآن كتبهم : إنه مأخوذ منها ، وفيما خالفها إنه ليس بصحيح لأنه خالفها ، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها ، وهذا من المكابرة التى لا تغنى حجة لرد خصم على خصم ، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق للأدلة القائمة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ، وما جاء فيه مخالفاً لما فى الكتب السابقة يعد مصححاً لأغلاطها لانقطاع أسانيدها ، حتى إن أعظمها وأشهرها وهى الأسفار التى تنسب إلى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها ، ولا الزمن الذى كتبت فيه ، ولا اللغة التى كتبت بها أولا .

إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قالتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

شرح المفردات

المسيح لفظ معرب من العبرانى وأصله مشيحا ، وعيسى معرب يسوع بالعبرانية ، والوجيه ذو الجاه والكرامة ، والمهد مقر الصبى حين رضاعه ، والكهل من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين ، الكتاب الكتابة والخط ، والحكمة العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة إلى نافع العمل ، ويقف بالعامل على نهج الصراط المستقيم لما له من بصر بفقه الأحكام وسر التشريع ، والتوراة كتاب موسى وقد كان المسيح عليا به يبين أسراره لقومه ويحتج عليهم بنصوصه ، والإنجيل هو الكتاب الذى أوحى إليه به ، والخلق التصوير والإبراز على مقدار معين لا الإنشاء والاختراع ،

والهيئة الصورة ، والأكمه الذى يولد أعمى ، والأبرص هو الذى به برص أى بياض فى الجلد يتطير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بقصص عيسى عليه السلام ، وجاء بقصص زكريا بينهما اعتراضاً تقريرا لقصص مريم وتنبيها إلى أنه وحده كاف فى الدلالة على صدق من أنزل عليه .

الإيضاح

(إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم) أى إن الملائكة بشرت مريم بهذا الولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها ، وتطهيره لها ، وأمرتها بعبادته ودوام شكره .

والمراد من الملائكة هنا جبريل لقوله فى سورة مريم « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا » وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم ، وقوله بكلمة من الله أى بكلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شىء قد خلق بكلمة التكوين ، لأنه لما فقد فى تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق فى العادة ، وهو تلقيح ماء الرجل لما فى الرحم من البويضات التى يتكون منها الجنين ـ أضيف إلى الله وأطلقت الكلمة على هذا المكوَّن إيذاناً بذلك ، بخلاف الأشياء الأخرى فإنها تنسب فى العرف إلى الأسباب العادية .

وأطلق عليه المسيح وهو لقب الملك عندهم ، لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس ، ويعبرون عن تولية الملك بالمسح ، وعن الملك بالمسيح .

والمعروف لديهم أن أنبياءهم السالفين بشروهم بمسيح يظهر فيهم ، وأنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان فى الأرض ، فحين ظهر عيسى وسمى بالمسيح آمن به قوم وقالوا إنه هو الذى بشر به الأنبياء ، واليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها بعدُ .

وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها ، إشارة إلى أنه ينسب إليها ، إذ ليس له أب .

(وجيها فى الدنيا والآخرة) فوجاهته فى الدنيا لما له من المكانة فى القلوب والاحترام فى النفوس ، فمنزلته فى نفوس المؤمنين به لا تعدلها منزلة أخرى ، وما جاء به من الإصلاح قد بقى أثره بعد ، وهذه الوجاهة أجل شأناً من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون لدفع أذاهم واتقاء شرهم ، أو لمداهنتهم والتزلف إليهم رجاء شىء مما فى أيديهم من متاع الحياة ، وهذه وجاهة صورية لا أثر لها فى النفوس إلا الكراهة والبغضاء .

ووجاهته فى الآخرة بكونه ذا مكانة علمية ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها و يعلمون قربه من ربه .

(ومن المقربين) عند الله يوم القيامة ، فالناظر إليه حينئذ يعتقد ما له من القرب والزلفى عنده .

(ويكلم الناس فى المهد وكهلا) أى أنه يكلم الناس حال الطفولة وحال الكهولة وفى هذا بشارة بأنه يعيش حتى يكون رجلا سويا ، قال ابن عباس : كان كلامه فى المهد لحظة بما قصه الله علينا ، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام .

والنصارى تزعم أنه عليه السلام لم يتكلم فى المهد ، ولم ينطق ببراءة أمه صغيرا ، وعاش ثلاثين سنة ، واليهود تقذف أمه بيوسف النجار .

والخلاصة — أنه يكلم الناس طفلا فى المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها

به المفترون عليها ، وحجة على نبوته ، وبالغا كبيرا بعد أن يرسله الله وينزل عليه وحيه ، وأمره ونهيه .

(ومن الصالحين) أى ومعدودا من الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الذين تعرف مريم سيرتهم .

(قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) أى قالت كيف يكون لى ولد وليس لى زوج ، وقد يكون مرادها ، أيحدث ذلك بزواج أم يحصل بقدرتك ، وقد يكون قصدها التعجب من قدرة الله واستعظام شأنه .

(قال كذلك الله يخلق ما يشاء) أى مثل هذا الخلق العجيب والإحداث البديع وهو خلق الولد بغير أب ـ يخلق الله ما يشاء .

ولاختلاف القصتين قصة مريم وزكريا فى الغرابة عبر فى الأولى بيفعل وفى الثانية بيخلق ، إذ العادة قد جرت بأن الفعل يستعمل كثيرا فى كل ما يحدث على النواميس المعروفة ، والأسباب الكونية المألوفة ، والخلق يقال فيما فيه إبداع واختراع ولو بغير ما يعرف من الأسباب ، فيقال خلق الله السموات والأرض ، ولا يقال فعل الله السموات والأرض .

وإيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس فعبر عنه بالفعل ، وإن كان فيه آية لزكريا من جهة أن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما فى العادة ـ أما إيجاد عيسى فهو على غير المعهود فى التوالد ، بل بمحض القدرة ، فالتعبير عنه بالخلق أليق .

(إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أى إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون من غير ريث ولا إبطاء .

وهذا تمثيل لكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وتصوير سرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة آمر مطاع لمأمور قادر على العمل مطيع بفعل ما يطلب منه على الفور .

وهذا الأمر يسمى أمر تكوين ، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف يعرف بوحى الله لأنبيائه .

والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب ، وقوفا عند العادة ، وذهولا عن كيفية بدء العالم ، ولكن ليس لهم دليل عقلى ينبئ بالاستحالة ، وإنا لنشاهد كل يوم حدوث شىء فى الكون لم يكن معتادا من قبل ، بعضه له أسباب معروفة فيسمونه استكشافا أو اختراعا ، وبعضه ليس بمعروف له سبب ، ويسمونه فلتات الطبيعة .

والمؤمنون يقولون إن مثل هذا الذى جاء على غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدى العاقل إلى أن الأسباب ليست واجبة وجوبا عقليا مطردا .

وأن أبناء الجيل الحاضر الذين رأوا من الغرائب مالو رآه السابقون لعدوه سحرا أو خرافة أو أضافوه إلى الجن — ليس لهم عذر فى إنكار الأشياء التى لم يعرفوا لها أسبابا ، وقد قرر فلاسفة العصر إمكان توالد الحيوان من غير حيوان ، إذا فتوالد الحيوان من حيوان واحد أقرب إلى العقول وأدنى إلى الإمكان .

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) أى ويعلمه الكتابة والخط ، والعلم الصحيح الباعث للإرادة إلى الأعمال النافعة ، ويفقهه فى التوراة ، ويعلمه أسرار أحكامها ، وقد كان المسيح عليما بها يرشد قومه إلى أسرارها ومغازيها ، وكذلك يعلمه الإنجيل الذى أوحى به إليه .

(ورسولا إلى بنى إسرائيل) أى ويرسله رسولا إلى بنى إسرائيل ، روى أن الوحى أتاه وهو ابن ثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء .

(أنى قد جئتكم بآية من ربكم) أى يرسله محتجا على صدق رسالته قائلا أنى قد جئتكم بآية من ربكم ثم فسرها بقوله :

(أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) أى أنى أصور لكم من الطين صورة على مقدار معين كصورة الطير فأنفخ فيها فتكون

طيرا حيا كسائر الطيور بأمره تعالى ، لأنه هو الذى يخلق الحياة فى ذلك الجسم بقدرته عند نفخ عيسى فيه معجزة له .

والخلاصة — أن من علامات نبوتى إن كنتم فيها تمترون ، أنى أقتطع من الطين جزءا مصورا بصورة طير من الطيور التى تريدون ، ثم أنفخ فيه فيصير طيرا حيا يخلق فى جو السماء كما تفعل بقية الطيور .

وقد روى أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خُفّاش فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله .

وقد جرت سنة الله أن تجرى الآيات على أيدى الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الإيمان موقوفا عليها ، فإن كانوا سألوه شيئا من ذلك فقد فعل ، ولا حاجة بنا إلى تعيين نوع الطير ، إذ لم يرد عندنا نص من كتاب أو سنة يعينه فنقف حينئذ عند لفظ الآية .

(وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله) وإنما خصا بالذكر ، لأن مداواتهما أعيت نطس الأطباء، وقد كان الطب متقدما جدا لتقدم زمن عيسى فأراهم الله المعجزة من ذلك الجنس .

وقد جرت السنة الإلهية أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر فى زمنه فأعطى موسى العصا وابتلعت ما كانوا يأفكون ، لأن المصريين فى ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر ، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حذقه أطباء عصره ، وأعطى محمدا معجزة القرآن ، لأن التفاخر فى ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان .

وقد روى عن إحياء عيسى للموتى روايات كثيرة ، فمن ذلك أنه أحيا بنتا قبل أن تدفن ، وأحيا العيازر قبل أن يبلى ولم ينقل أنه أحيا ميتا رميما .

قال صاحب الإسلام والطب الحديث رحمه الله فى تفسير هذه الآية : «إن بعضهم قد اعترض على عمل الطين بشكل الطير ، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادرا على إحيائه إلى آخر ما قالوا .

والحقيقة أن فى ذلك حكمة عالية ، لأن الإنسان خلق محدود الإدراك والحواس، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان فى متناول إدراكه ، فإن رأى شيئا فوق طاقته اجتهد فى أن يرده إلى شىء يعرفه ، فإن لم يمكنه بقى متحيرا ، وإن تكرر ذلك أدى إلى اضطراب فى الأعصاب قد يكون خطرا .

وهنا يلحظ لطف الله فى أنه لا يظهر قدرته للإنسان إلا بطريق التدرج ، وهذا يلاحظ فى كل المعجزات على الإطلاق ، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، سواء أكان فى شكل الطير أم لم يكن ، وكذلك لا داعى للنفخ لأن طريق الإرادة الإلهية هى (كن فيكون) .

ولكن الله يقرب فهم الإرادة بهذه الطريقة ، لأن الطين إذا كان بشكل الطير يشتبه فيه الإنسان بالطير الحقيقى، ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة مع أن ذلك كل الفرق ، وبعدها ينفخ فيه .

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييرا كما يحدث فى أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها وغير ذلك ، فعند وجود الروح فى هذا الهيكل الطينى تكون الصدمة قد انكسرت حدتها بانتظار حدوث شىء مهم ، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقا فى وجود الحياة والروح .

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه الخ لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب فى حالات عصبية مخصوصة (غير عضوية) ، ولهذا يشتبه فيها الناظر.

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة ، لأننا نراها على أيدى أشخاص كثيرين ، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذى فقد بصره بفقد العين نهائيا ، وبين إبراء الأعمى المصاب بالهستريا الخ مثلا يشبه الفرق بين الطين الذى فى شكل الطير

والطير الحقيق ، ولـكن الله تعالى أراد أن يفهم الإنسـان بذلك قدرته تدريجا ، فالإنسان أولا يشك و يقول : ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التى ليست فوق قدرة الإنسان ، وربما كانت شيئاً غير عادى ، ولـكن الله يقول بعد ذلك : وأحيى الموتى ، لـكى لايدع مجالا للشك مطلقا .

إننا نجد هذه الطريقة نفسها فى تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام ، لأنه خلق من نطفة الأم فقط ، وفى العالم المادى لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفتى الأب والأم ، ولـكن الطريقة التى ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين ، فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن ، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة ، ولـكنهم أخذوا يفهمون الحقيقة تدريجيا عندما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التى أتى بها المسيح .

وقد وصلوا إلى هذا الفهم على الرغم من أن عيسى خلق من أم فقط ، ولـكن خلقه على هذه الصورة لايقل عن خلق آدم من طين ، لأن نظام الـكائنات يجرى على سنة واحدة لا تتخلف أبدا إلا حيث يريد الله ، ومتى أراد الله فلا معنى لطريقة خاصة ، ولا حاجة إلى واسطة إلا بقدر الإقلال من تأثير الصدمة على الإنسان كما بينا ... ثم قال :

المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف كل ما نراه يوميا من عظة وعظمة كالولادة ونمو الحيوان والنبات ، فإنه مع إعجازه يأتى مطابقا لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير .

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فإن ذلك مع عظمته لايحدث صدمة لعقولنا لتعودنا إياه ، ولـكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان ، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

ولا تحصل المعجزات إلا على أيدى الأنبياء ، وذلك لأن صدمتها إن كانت

شديدة على الحاضرين ، فهى أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

ولمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيئ الله الظروف لتحملها ، ويهيئ النبى نفسه لقبولها ، ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها ، فأمر الله لسيدنا موسى بإدخال يده فى جيبه ، وإخراجها فتكون بيضاء ، ليس إلا لتهيئته للمعجزات الأخرى . وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل إلى صنعها الإنسان مهما ارتقى ، وأغلبها ينتهى إلى شىء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة ، فمثلا إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى ، والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذى فقد شيئا عضويا حيا لا يمكن استعاضته ، ومن أمكنه استعاضة شىء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعيض الكل .

وأما إبراء الأعمى الذى يشاهد يوميا فهذا يحدث فى الأحوال العصبية غير العضوية ، وبواسطة أطباء العيون ، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى ، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلا إبراء الأعمى بإعادة عصب للعين من جديد الخ وكذلك صنع أرجل جديدة ، فالجراح يصنع رجلا صناعية ، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الإنسان أن يمشى عليها ، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلا من لحم ودم .

وصفوة القول — أنه لا يمكنه أن يصنع جزءا حيا مهما صغر حجمه ، لأن الجسم مجموع ملايين من الخلايا ، وصنع واحدة كصنع الكل ، وهذا معنى قوله تعالى : « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » ولذلك ستبقى المعجزات دائماً فوق قدرة الإنسان ، ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة لعقولنا فقط ، ولكنها كلها من نوع واحد ، وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه .

وقد يقول البعض : إن العلوم تتقدم ، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودة فى مدة الأنبياء لعد معجزة — وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقى

للمعجزات لم يفهم ، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية ، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير ، فإذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها ، فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، فالسنن الإلهية أو القواعد العلمية أو قواعد الطبيعة ـ كما يسميها الطبيعيون ـ لا حد لها ولا تتغير أبداً ، وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتما على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أبدا ، وكل ما يظهر مدهشا فى نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وماسيظهر — هو من الاستعانة بهذه القواعد ، فالذى يتكلم فى أوربا ويسمعه آخر فى مصر بواسطة الراديو استطاع ذلك ، لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج إلى العالم كله ، فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسخروها لأغراضهم ولذلك مهما عظمت النتائج فى المخترعات ، فإن طريق الوصول إليها سنة ثابتة ، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوله نهرا يجرى ، فإنه لم يخلق نهرا ولكنه استعان بالقوى الطبيعية ، بعكس المعجزات فإنها من طراز آخر ، وهى مهما صغرت نتائجها ، خلق سنة جديدة ، وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم .

ولزيادة الإيضاح أضرب مثلا قصة سيدنا إبراهيم وعدم احتراقه بالنار ، فإن العلم بتقدمه يستطيع أن يغطى الإنسان بشىء غير قابل للاحتراق ويضعه فى النار فلا يحترق ، وهذا يشبه المعجزة ، ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية.

أما المعجزة فهى أن تضع الإنسان كما هو جسما ولحما فى النار فلا يحترق، فيكون عدم احتراقه حينئذ هو المعجزة ، وهى خرق للسنة الطبيعية التى تقضى باحتراق الجسم متى وضع فى النار .

وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به ، فإنه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه ولكنه فى الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجى الذى لا يقبل الاحتراق بطبيعته لأن جسم الإنسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار ، والفرق

بين الإثنين ظاهر ، والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوى والمخترع.

والطبيب الذى يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيى الموتى ، لأنه استعان بالسنن الطبيعية ، وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن .

و يتسائل كثير من الناس هل المعجزات ضرورية ؟ والجواب أنها ضرورية لإيمان الإنسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبدا ، وهـذا ما يسمى (بالطبيعة) وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفى للآن شىء مدهش ، حتى إن الإنسان قد ينسى واضع هذه القوانين ، و يقول ما الحاجة بى لأن أقول إن هناك صانعا أزليا ما دامت هـذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟

وهنا كانت حكمة الله فى أن يخرق هـــذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود .

ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الإنسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية فى ثقب فيها ، فتخرج ورقة عليها رقم وزنه ، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبدا آلاف السنين ، فإن الإنسان يشك فى صانعها الأول ، ولـكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد ، و بدون وضع القطعة المعدنية فيها يقول من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها ، و إذا رأى يوما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة تزن الأشخاص ، أيقن أن للأولى صانعا ، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذى منه خلق العالم الإنسانى كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التى لا تبديل فيها .

وصفوة القول — أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرابتها ، فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولـكن أهمية المعجزة فى طريق صنعها بدون السنن العادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبدا إلا بإذن الله لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها ، ولا يدرك طريقة صنعها .

أما الاختراع فإنه اكتشاف لناموس إلهى (طبيعى) ولذلك هو يتكرر دائماً فى الظروف نفسها على يد كل إنسان ، انتهى كلامه بتصرف .

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) أى وأخبركم بما تأكلونه من أنواع المآكل ، وما تخبئونه للغد فى بيوتكم ، وقد كان يخبر الرجل بما أكل ، وبما سيأكل .

والفرق بين إخباره بالغيوب ، وإخبار المتنجمة والمتكهنة التى كثيرا ما تخبر بالشىء وتصيب ، أن المتنجم والمتكهن إنما ينبئ عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه ، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ، ومن سائر أنبيائه ورسله ، بل كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال ، ولكن بإعلام الله ابتداء من غير أصل تقدم ذلك احتذاه أو بنى عليه ، أو فزع إليه كما يفزع المتنجم إلى حسابه ، والمتكهن إلى رِئيِّه ، فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها ، وبين علم سائر المتكذبة على الله ، أو المدعية علم ذلك .

(إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) أى إن فى ذلك لحجة على صدق رسالتى ، وموضعا للعبرة تتفكرون فيه فتعتبرون به أنى محق فى قولى لكم أنى رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أنى فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق ، إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته ، مقرين بتوحيده ، وبنبيه موسى وبالتوراة التى جاءكم بها .

(ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) أى وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة لا ناسخاً لها ولا مخالفاً شيئاً من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها فى الإنجيل مما كان مشددا عليهم فيها ، وهو الذى ذكره بقوله : (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) أى بعض الطيبات التى كانت حرمت على بنى إسرائيل بظلمهم وكثرة سؤالهم ، فأحلها عيسى كما قال تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » قالوا ومن ذلك السمك ولحوم الإبل والشحوم والعمل يوم السبت .

(وجئتكم بآية من ربكم) أى وقد جئتكم بآية بعد آية من ربكم شاهدة على صدق وصحة رسالتى بما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالخفيات إلى نحو أولئك .

وأعاد هذا ليترتب عليه الأمر الذى ذكره وهو :

(فاتقوا الله وأطيعون) أى لما جئتكم به من المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة اتقوا الله فى المخالفة ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه .

ثم ختم مقاله بالإقرار بالتوحيد والاعتراف بالعبودية فقال :

(إن الله ربى وربكم فاعبدوه) وهذا أمر لهم بالاعتقاد الحق وهو التوحيد ، ثم بملازمة الطاعة بالقيام بأداء ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، ونظيره ما جاء فى الحديث « قل آمنت بالله ثم استقم » .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أمرتكم به هو الطريق السوىّ الذى أجمع عليه الرسل قاطبة ، وهو الموصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

شرح المفردات

فى الأساس : أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر، وما أحسنا منه خيرا ، وهل تحس من فلان بخير ، وفى الكشاف أحس ، علم علما لاشبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ، والأنصار واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف ، والحواريون واحدهم حوارى ، وحوارى الرجل صفيُّه وناصره ، ومسلمون أى منقادون ، لما تريده منا ، والمكر تدبير خفىّ يفضى بالمكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعمالهُ فى التدبير السيئ وإن كان يستعمل فى الحسن والسيئ معا كما قال تعالى : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » .

والداعى إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله ، فكانت حاجة المربى أو القوّام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول إليه ، والتوفى : أخذ الشىء وافيا تاما ثم استعمل بمعنى الإماتة كما قال تعالى : «اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» وتطهيره من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه به بتهمة أمه بالزنا .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام ، وكلامه الناس فى المهد ، وإيتائه الكتاب والحكمة والنبوة وإرساله رسولا إلى بنى إسرائيل وذكر براءة أمه التى تقدم ذكرها .

وهنا ذكر خبره مع قومه وما لاقاه منهم من الصدّ والإعراض ومقاساة الأهوال وهمهم بقتله وإنجاء الله إياه ، ووعيد الكافرين به وعذابهم فى الدنيا والآخرة ، وطوى

ذكر مابينهما من خبر ولادته وبعثته مؤيدا بتلك الآيات التى تقدمت اكتفاء بحكاية الملائكة ، وثقة بما فصل فى المواضع الأخرى .

الإيضاح

(فلما أحسّ عيسى منهم الكفر) أى فلما شعر من قومه بنى إسرائيل بالإصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء ، فقد صح أنه لقى من اليهود شدائد كثيرة ، فقد كانوا يجتمعون عليه ويستهزئون به ، ويقولون له يا عيسى : ما أكل فلان البارحة ، وما ادخر فى بيته لغد ، فيخبرهم فيسخرون منه ، حتى طال ذلك به وبهم وهموا بقتله فخافهم واختفى عنهم ، وخرج هو وأمه يسيحان فى الأرض .

وفى هذا عبرة وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان لأن الآيات الكونية مهما كثرت لا تفضى إلى الإيمان إلا إذا كان للمدعو استعداد للقبول ، ومن الداعى حسن بيان .

وحين رأى منهم ذلك :

(قال من أنصارى إلى الله ؟) أى قال للحواريين كما تدل عليه آية الصف «كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟» أى من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله فى نصرى ، ويكونون من أهل الاستعداد لمتابعتى ، وينخلعون عما كانوا فيه ، وينصرفون إلى تأييد رسوله !

(قال الحواريون نحن أنصار الله) أى قال خاصة أصحابه وناصروه : نحن أنصار دين الله ، والباذلون كل ما فى الوسع فى تأييد دعوتك ، والآخذون بتعاليمك ، والمنصرفون عن التقاليد السالفة .

وهذا النصر لايستلزم القتال ، بل يكفى فيه العمل بالدين والدعوة إليه .

(آمنا بالله) هذا جار مجرى السبب فى نصره ، فإن الإيمان بالله موجب لنصرة دينه ، والذبّ عن أوليائه ، ومحاربة أعدائه .

(واشهد بأنا مسلمون) أى مخلصون منقادون لأوامره ، وفى هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبى ، وإن اختلف الأنبياء فى بعض صوره وأشكاله ، وأحكامه وأعماله .

وإنما طلبوا شهادته ، لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم القيامة .

(ربنا آمنا بما أنزلت) هذا تضرع إلى الله ، وعرض لحالهم عليه ، بعد عرضها على الرسول ، مبالغة فى إظهار أمرهم .

(واتبعنا الرسول) أى وامتثلنا ما أتى به منك .

وفى ذكرهم الاتباع بعد الإيمان دليل على أن إيمانهم كان بمنزلة اليقين الحاكم على النفس المصرّف لها فى العمل ، إذ العلم الصحيح هو الذى يستلزم العمل ، ما العلم الذى لاأثر له فيه فهو مجمل ناقص لايقين فيه ولا اطمئنان ، وكثيرا ما يظن الإنسان أنه عالم بالشىء ، فإذا حاول العمل به لم يحسنه ، ويتبين له أنه كان مخطئا فى دعوى العلم به .

(فاكتبنا مع الشاهدين) أى الشاهدين على حال الرسول مع قومه .

(ومكروا ومكر الله) أى مكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود ، بأن وكلوا به من يقتله غيلة ، ومكر الله فأبطل مكرهم ، فلم ينجحوا فيه ، ورفع عليه السلام إلى السماء ، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل

(والله خير الماكرين) أى أقواهم مكرا ، وأنفذهم كيدا ، وأقدرهم على إيصال الضر إليهم من حيث لايحتسبون ، فتدبيره الذى يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه ، وإتمام حكمته ، وكلها خير فى نفسها ، وإن قصر كثير من الناس فى الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم .

(إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ) أى مكر الله بهم حين قال لنبيه إنى متوفيك إلىّ .

وفى هذا بشارة بنجاته من مكرهم واستيفاء أجله ، وأنهم لاينالون منه ما كانوا يريدون بمكرهم وخبثهم .

وللعلماء فى تأويل هذه الآية رأيان :

(١) أن فيها تقديما وتأخيرا ، والأصل : إنى رافعك إلىّ ومتوفيك ، أى إنى رافعك الآن ومميتك بعد النزول من السماء فى الحين الذى قدر لك — وعلى هذا فهو قد رفع حيا بجسمه وروحه وأنه سينزل آخر الزمان ، فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله .

(٢) أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى هو الإماتة العادية ، وأن الرفع بعده للروح ، ولا غرابة فى خطاب الشخص و إرادة روحه ، فالروح هى حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار ، يزيد و ينقص و يتغير ، والإنسان إنسان ، لأن روحه هى هى .

والمعنى — إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى ، كما قال فى إدريس عليه السلام « وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا » .

وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد يتعلق بأمر اعتقادى ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر ، ولا يوجد هنا واحد منهما ، أو أن المراد بنزوله وحكمه فى الأرض غلبة روحه ، وسر رسالته على الناس ، بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والتمسك بقشورها دون لبابها .

ذاك أن المسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ، ولكن جاء بما يزحزهم عن الجمود على ظواهر شريعة موسى عليه السلام ، و يقفهم على فقهها والمراد منها ، فإن أصحاب هذه الشريعة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها ، فكان لا بد لهم من إصلاح عيسوى يبين لهم أسرار الشريعة ، وروح الدين ، وكل ذلك فى القرآن الكريم الذى حجبوا عنه بالتقليد .

فزمان عيسى هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية، لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر .

وأما الدجال فهو رمز الخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها ، والأخذ بأسرارها وحكمها ، والقرآن أعظم هاد إلى الحكم والأسرار ، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم مبينة لذلك .

(ومطهرك من الذين كفروا) أى ومنجوك مما كانوا يرمونه بك من الشر ، أو مما كانوا يرمونه من القبائح ونسبة السوء إليه .

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) أى وجاعل الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله ، وصدقوك فى قولك « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعدك فوق الذين مكروا بك من اليهود ، وكذبوك ، ومن سار بسيرتهم ممن لم يهتد بهديك.

وهذه الفوقية إما فوقية دينية روحانية وهى فضلهم عليهم فى حسن الأخلاق ، وكمال الآداب ، والقرب من الحق ، والبعد من الباطل ، وإما فوقية دنيوية وهى كونهم أصحاب السيادة عليهم .

وفى هذا إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلى يوم القيامة ، وقد تحقق ذلك ، فلا يرى ملك يهودى ، ولا بلد مستقل لهم بخلاف النصارى ، ولكن هذا لم يتحقق زمن المسيح لأتباعه ، بل كان اليهود يغلبونهم على أمرهم ، فالوجه الأول أولى بالاعتبار .

(إلى يوم القيامة) أى إن هذا السمو فى الآداب والأخلاق والكمال فى الفضائل سيستمر لهم ما دامت السموات والأرض ، و بعدئذ يفعل الله بهم ما يشاء .

(ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) أى ثم مصيركم إلىّ يوم البعث ، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين ، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه ، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به .

وحينئذ يتبين لهم الحق فى كل ما اختلفوا فيه بما يمحو شبه الجاحدين وعناد المخالفين .

ثم بين جزاء المحقّ والمبطل وكيفيته فقال :

(فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) أى فأما الذين كذبوك وهم اليهود فأعذبهم فى الدنيا بإذلالهم بالقتل والأسر وتسليط الأمم عليهم ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى ، وهم لايجدون حينئذ نصيرا كما لم يجدوا ذلك فى الدنيا .

(وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) أى وأما الذين صدّقوك وأقروا بنبوّتك ، وبما جئتهم به من الحق ، ودانوا بالإسلام الذى بعثك الله به ، وعملوا بالأوامر وتركوا النواهى ـ فيؤتيهم الله أجرهم كاملا غير منقوص .

ثم بين علة جزاء الفريقين بما جازى فقال :

(والله لايحب الظالمين) أى لايحب من ظلم غيره حقا له ، أو وضع شيئا فى غير موضعه ، فكيف بظلم عباده له ، فهو يجازيه بما يستحق .

وفى هذا وعيد منه للكافرين به و برسله ، ووعد منه للمؤمنين به و برسله .

(ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) أى هذه الأنباء التى أنبأتك بها عن عيسى وأمه مريم وأمها ، وزكريا وابنه يحيى ، وما قصّ من أمر الحواريين واليهود من بنى إسرائيل نقرئها لك على لسان جبريل .

وهى من القرآن الحكيم الذى يبين وجوه العبر فى الأخبار والحكم فى الأحكام فيهدى المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة ، وأسرار الاجتماع البشرى .

وفيها حجة على من حاجك من وفد نجران ، ويهود بنى إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

شرح المفردات

المثل: الحال الغريبة والشأن: البديع، والامتراء: الشك، والبهلة (بالضم والفتح) اللعنة والدعاء، يقال ماله بهله الله، أى لعنه، ثم شاع استعماله فى مطلق الدعاء يقال فلان يبتهل إلى الله فى حاجته أى يدعوه، والقصص: تتبع الأثر، ومنه قوله تعالى « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تتبعى أثره ثم استعمل فى الكلام والحديث، لأن القاصّ يتتبع المعانى ليوردها، والعزيز: أى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد، والحكيم: ذو الحكمة التى لايساميه فيها أحد.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف قصص عيسى وأمه، وما جاء به، وكفر بعض قومه به، ورميهم أمه بالزنا، وإيمان بعض آخر به.

أردف ذلك بذكر حال فريق ثالث لم يكفر به، ولم يؤمن به إيمانا صحيحا، بل افتتن به افتتانا، لكونه ولد من غير أب، فزعم أن معنى كونه (كلمة الله وروح الله) أن الله حل فى أمه، وأن كلمة الله تجسدت فيه، فصار إنسانا وإلها، فضرب ليردّ به على الفريقين الكافرين به من اليهود، والمفتونين به من النصارى.

فبين أن خلق آدم أعجب من خلق عيسى فهـذا خلق من حيوان من نوعه ، وذاك قد خلق من التراب ، فهو أولى بالمزية إن كانت ، والإنكار إن صح الإنكار.

وأمر الخلقة غريب بالنسبة إلينا ، لـكنه ليس بالغريب بالنسبة إلى الصانع المبدع .

والقوانين المعروفة فى الخلق قد استخرجت مما نعهد ونشاهد ، وليست بالقوانين العقلية التى قامت البراهين على استحالة ما عداها .

وإنا لنشاهد كل يوم ما يخالفها كالحيوان التى توجد من غير جنسها ، أو الحيوان ذوات الأعضاء الزائدة ، ويعبرون عن ذلك بفلتات الطبيعة ، ولعل لهذه الشواذ وتلك الفلتات سننا أخرى مطردة لم تظهر لنا .

وهكذا شأن خلق عيسى ، فكونه على غير السنن المعروفة ، لايقتضى تفضيله على غيره من الأنبياء ، بَلْهَ أن يكون إلها .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن وفد نجران من النصارى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال وما أقول ، قالوا تقول إنه عبد الله قال أَجَلْ هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب ، فإن كنت صادقا فأرنا مثله فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) أى إن شأن عيسى وصفته فى خلق الله إياه على غير مثال سابق كشأن آدم فى ذلك ثم فسر هذا المثل وفصل ما أجمله فقال : (خلقه من تراب) أى قدر أوضاعه وكوّن جسمه من تراب ميت ، أصابه الماء فكان طينا لازبا لزجا .

وفى هذا توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما ، وقطع لشبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب مع الاعتراف بخلق آدم من غير أب ولا أم — مما لا ينبغى أن يكون ولا يسلمه العقل .

(ثم قال له كن فيكون) أى ثم أنشأه بشرا بنفخ الروح فيه كما جاء فى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » .

(الحق من ربك) أى هـذا الذى أنبأتك به من شأن عيسى هو الحق ، لا ما اعتقده فيه النصارى من أنه إله ، ولا ما زعمه اليهود من رميها بيوسف النجار.

(فلا تكونن من الممترين) أى فلا تشكنّ فى أمره بعد أن جاءك العلم اليقينى به .

وتوجيه هذا النهى للنبى صلى الله عليه وسلم مع استحالة وقوع الامتراء منه ـ ذو فائدة من وجهين :

ذاك أنه إذا سمع صلى الله عليه وسلم مثل هذا الخطاب ازداد رغبة فى الثبات على اليقين واطمئنان النفس، وإذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء ، إذ أنه صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره خوطب بمثل هذا فما بالك بغيره ؟ .

وخلاصة ذلك ـ دم على يقينك ، وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان إلى الحق ، والتنزه عن الشك فيه .

(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) أى فمن جادلك فى شأن عيسى عليه السلام من بعد أن قصصت عليك من خبره وجَلِيَّة أمره ما قصصت .

(فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ، أى فقل لهم : أقبلوا وليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه للمباهلة والدعاء .

وفى تقديم هؤلاء على النفس فى المباهلة ، مع أن الرجل يخاطر بنفسه لهم ـ إيذان بكمال أمنه صلى الله عليه وسلم ، وتمام ثقته بأمره ، وقوة يقينه ، بأنه لن يصيبهم فى ذلك مكروه ، وهذه الآية تسمى آية المباهلة .

وقد ورد من طرق عدة أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا نصارى نجران للمباهلة فأبوا ، أخرج البخارى ومسلم : أن العاقب والسيد أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فأراد أن يلاعنهما ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه ، فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لانفلح أبدا ، ولا عقبنا من بعدنا أبدا ، فقالا له نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلا أمينا ، فقال قم يا أبا عبيدة ، فلما قام قال : هذا أمين هذه الأمة .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس أن ثمانية من نصارى نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم العاقب والسيد فأنزل الله (قل تعالوا) الآية فقالوا أخرنا ثلاثة أيام، فذهبوا إلى قريظة والنضير و بنى قينقاع من اليهود ، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه ، وقالوا هو النبى الذى نجده فى التوراة ، فصالحوه على ألف حلة فى صفر وألف فى رجب ، ودراهم .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم اختار للمباهلة عليا وفاطمة وولديهما عليهم الرضوان وخرج بهم وقال : إن أنا دعوت فأمنوا أنتم، وأخرج ابن عساكر عن جعفر عن أبيه أنه لما نزلت هذه الآية جاء بأبى بكر وولده ، و بعمر وولده ، و بعثمان وولده. ولاشك أن الذى يفهم من الآية : أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يدعو المحاجين والمجادلين فى شأن عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا ونساء وأطفالا ، ويجمع هو المؤمنين رجالا ونساء وأطفالا ، و يبتهلوا إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى .

وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول ، كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب من نصارى نجران وسواهم على امترائهم فى حجاجهم ، وكونهم على غير بينة فيما يعتقدون .

وفى الآية عبرة لمن ادّكر ، لأنه طلب فيها مشاركة النساء للرجال فى الاجتماع للمفاضلة الدينية ، وفى هذا دليل على أن المرأة كالرجل حتى فى الأمور العامة إلا فى بعض مسائل ككونها لاتباشر الحرب بنفسها ، بل تشتغل بخدمة المحاربين ومداواة الجرحى ، ولا تتولى القضاء فى الجنايات ونحوها .

وأين هذا من حال نساء المسلمين اليوم ، فى جهلهنّ بأمور الدين ، وعدم

مشاركتهنّ للرجال فى عمل من الأعمال الدينية أو الشئون الاجتماعية ، ولا همّ لنساء الأغنياء فى المدن إلا الزينة والتنوق فى المطاعم والمشارب والملابس ؛ كما لا عمل لنساء الفقراء فى القرى والدساكر إلا الخدمة فى الحقول والمنازل ، فهن كالأتن الحاملة ، والبقر العاملة ، وكان من جَرَاء هذا أن صغرت نفوسهن ، وضعفت آدابهن ، وصرن كالدواجن فى البيوت ، أو السوائم فى الصحراء ، وساءت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد من الأفراد إلى الجماعات ، وعمّ الأسر والعشائر ، والشعوب والقبائل .

وقد قام فى العهد الأخير جماعات من العقلاء فى كثير من البلاد الإسلامية يطالبون بتحرير المرأة ومشاركتها الرجل فى العلم والأدب وشئون الحياة ، وصادفت هذه الدعوة آذانا صاغية ، فبدأ المسلمون يعلمون بناتهم ، ولكن يحسن أن يصحب هذا التعليم شىء كثير من التربية الدينية ، والإصلاح فى الأخلاق والعادات .

وقد كان هذا عاملا من عوامل الانقلاب الاجتماعى الذى لاندرى ما تكون عاقبته فى إصلاح الأسر الإسلامية ولا ماسيتمخض عنه من نفع للاسلام والمسلمين .

(إن هذا لهو القصص الحق) أى إن هذا الذى قصصته عليك فى شأن عيسى هو الحق ، لا ما يدعيه النصارى من كونه إلها أو ابن الله ، ولا ما يدعيه اليهود من كونه ابن زنا .

(وما من إله إلا الله) الذى خلق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، وفى هذا رد على النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

(وإن الله لهو العزيز الحكيم) أى إنه تعالى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد ، وذو الحكمة التى لا يساويه فيها أحد ، حتى يكون شريكا له فى ألوهيته ، أو ندا له فى ربوبيته ، وما الولد إلا نسخة من الوالد ، فهو يساويه فى جنسه ونوعه ، وهو سبحانه فوق الأجناس والأنواع .

(فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) أى فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك ، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التى جئت بها ، ولم يجيبوك إلى المباهلة ، فإن الله عليم بحال

المفسدين فى الدين وبنياتهم ، وأغراضهم الفاسدة ، فيجازيهم بخبيث سرائرهم ، وسىء أعمالهم .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؟ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

شرح المفردات

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، تعالوا أى أقبلوا ووجهوا النظر إلى مادعيتم إليه ، وسواء أى عدل و إنصاف من بعضنا لبعض ، والإله هو المعبود الذى يدعى حين الشدائد ، و يقصد عند الحاجة اعتقادا بأنه وحده ذو السلطة الغيبية ، والربّ : هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا ماله حق التشريع من تحريم وتحليل ، مسلمون : أى منقادون لله مخلصون له ، تحاجون : أى تجادلون ، والحنيف المائل عن العقائد الزائفة ، والمسلم هو الموحد المخلص المطيع له .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر دعوته صلى الله عليه وسلم الناس الى التوحيد والإسلام ، وظهور عناد أهل الكتاب حتى اضطر الى دعوتهم الى المباهلة فأعرضوا ، وبذلك انقطعت حججهم ، ودل ذلك على أنهم ليسوا على يقين من اعتقاد ألوهية المسيح ، ومن يفقد اليقين يتزلزل حينما يدعى إلى شىء مما يخاف عاقبته .

دعاهم هنا إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعا وهو سواء وعدل بين الفريقين لا يرجح فيه طرف على طرف ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر بأن يقول لهم : اشهدوا بأنا مسلمون .

الإيضاح

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم) أى قل : يا أهل الكتاب هلموا وانظروا فى مقالة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب الذى أنزلت إليهم ، فقد أمرت بها التوراة والإنجيل والقرآن .

ثم بين هذه الكلمة فقال :

(ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) أى ألا نخضع إلا لإله له السلطة المطلقة فى التشريع وله التحليل والتحريم ، ولا نشرك به شيئا سواه (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية فى قوله ـ ألا نعبد إلا الله ـ ووحدانية الربوبية فى قوله ـ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ـ .

وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان ، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وجاء به موسى فقد ورد فى التوراة قول الله له (إن الرب إلهك ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، ومما

فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ) وكذلك جاء عيسى بمثل هذا ، ففى إنجيل يوحنا (وهـذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته ، وجاء خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بمثل هذا « اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ » .

وخلاصة المعنى — أنا وأنتم نعتقد أن العـالم من صنع إله واحد هو خالقه والمدبر له ، وهو الذى يرسل إلينا أنبياءه ليبلغونا عنه ما يرضيه من العمل وما لا يرضيه فهلم بنا نتفق على إقامة هذه الأصول ، ونرفض الشبهات التى تعرض لها ، فإذا جاء كم عن المسيح شىء فيه (ابن لله) أوّلناه على وجه لا يخالف الأصل الذى اتفق عليه الأنبياء ، لأننا لا نجد المسيح قد فسر هذا القول بأنه إله يعبد ، ولا دعا إلى عبادته وعبادة أمه ، بل كان يدعو إلى عبادة الله وحده والإخلاص له .

وقد كان اليهود موحدين ، ولـكن كان منبع شقوتهم اتباعهم لرؤساء الدين فيما يقررون من الأحكام ، وجعْله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله ، وسار النصارى على هذا المنوال ، وزادوا مسألة غفران الخطايا ، وهى مسألة كان لهـا أثر خطير فى المجتمع المسيحى حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الـكنائس أكثر أموال الناس ، فقامت طائفة جديدة تطالب الإصلاح وهى فرقة (البروتستانت) وقالت دعونا من هؤلاء الأرباب ، وخذوا الدين من الـكتاب ، ولا تشركوا معه شيئا سواه من قول فلان وفلان .

روى عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ فى سـورة براءة « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » فقلت له يا رسول الله : لم يكونوا يعبدونهم ، فقال أما كانوا يحللون لـكم ويحرّمون ، فتأخذون بأقوالهم ؟ قال نعم ، فقال عليه السلام : هو ذاك .

(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أى فإن أعرضوا عن هذه الدعوة ، وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله ، واتخذوا الشركاء والوسطاء والأرباب الذين يحللون ويحرّمون ، فقولوا لهم إنا منقادون لله مخلصون له لا نعبد أحدا سواه ، ولا نتوجه إلى غيره نطلب منه النفع أو دفع الضرّ ، ولا نحل إلا ما أحله الله ، ولا نحرم إلا ما حرمه الله .

وفى هذا حجة على أن مسائل الدين كالعبادات والتحريم والتحليل لا يؤخذ فيها إلا بقول النبى المعصوم ، لا بقول إمام مجتهد ولا فقيه قدير ، وإلا كان ذلك إشراكا فى الربوبية ، وخروجا من هداية القرآن التى دل عليها مثل قوله « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ » وقوله : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ، هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ » .

أما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فقد فوض الله أمرها إلى أولى الحل والعقد وهم رجال الشورى ، فما أمروا به وجب على حكام المسلمين تنفيذه والعمل به ، وعلى الرعية قبوله .

وهذه الآية هى الأساس والأصل الذى دعا النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب إلى العمل به حين دعاهم إلى الإسلام كما ثبت ذلك فى كتبه إلى هِرَقْلَ والمقَوْقِس وغيرهما .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم) الآية .

(يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم) أى أيها اليهود والنصارى : لم تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ، ويدعى كل منكم أنه على دينه ؟ .

(وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين ، لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق والعهد الجديد ، كما كانت قريش تجله وتدعى أنها على دينه) .

وهو لم يكن على شىء من تقاليدكم ، بل كان على الإسلام الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، و إلى هذا أشار بقوله .

(وما أنزلت التوراة والإنجيل الا من بعده ، أفلا تعقلون ؟) أى وما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال ، وقد قالوا إن بين ابراهيم وموسى سبعمائة سنة ، و بين موسى وعيسى حوالى ألف سنة. أفلا تعقلون أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا له ؟ .

وخلاصة ذلك — أنه اذا كان الدين الحق لا يعدو التوراة كما يقول اليهود ، ولا يتجاوز الإنجيل كما يقول النصارى ، فكيف كان إبراهيم على الحق ، واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم ، والتوراة والإنجيل خلو من الإخبار بيهوديته ونصرانيته اللتين زعمتموها ، أليس عندكم عقل يردكم عن مثل هذه الدعوى ، ويربأ بكم أن تقولوا ما لا سند له من كتاب ولا دليل عليه .

وفى هذا إيماء إلى جهلهم وحماقتهم فى دعواهم هذه .

(هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) من أمر عيسى عليه السلام ، وقد قامت عليكم الحجة ، وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرّط وقال إنه دعىّ كذاب ، ولم يكن علمكم بمانع لكم من الخطأ .

(فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟) من أمر إبراهيم إذ لا ذكر لدينه فى كتبكم فمن أين أتاكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، أليس من المعقول أن تتبعوا فيه ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

(والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى والله يعلم ما غاب عنكم ، ولم تشاهدوه ، ولم تأتكم به الرسل من أمر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه ، وأنتم لا تعلمون من ذلك إلا ما عاينتم وشاهدتم ، أو أدركتم علمه بالسماع .

ثم صرّح بما فهم من قبل تلويحا فقال :

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) أى إن اليهود

والنصارى الذين جادلوا فى إبراهيم وملته وأنه كان على دينهم ـ كاذبون فى دعواهم وأن الصادق فيها هم أهل الإسلام ، فإنهم وحدهم أهل دينه وعلى منهاجه وشريعته دون سائر الملل الأخرى ، إذ هو مطيع لله ، مقيم على محجة الهدى التى أمر بلزومها ، خاشع له بقلب متذلل ، مذعن لما فرضه عليه ، وألزمه به .

(وما كان من المشركين) الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم ، وهم قريش ومن سار على نهجهم من العرب .

وصفوة القول ـ أن إبراهيم الذى اتفق اليهود والنصارى والمشركون على إجلاله وتعظيمه ـ لم يكن على ملة أحد منهم ، بل كان مائلا عما هم عليه من الوثنية ، مسلما لله ، مخلصا له .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبىّ والذين آمنوا معه) : أى إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته ـ هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه فى عصره فوحدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين ، وهذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء ، المخلصون لله فى أعمالهم دون شرك ولا رياء .

وهذا هو روح الإسلام ، والمقصود من الإيمان ، ومن فاته ذلك فقد فاته الدين كله .

ثم ذكر أنهم مع نصرتهم لإبراهيم فالله ناصرهم فقال .

(والله ولى المؤمنين) بالنصرة والتأييد ، والتوفيق والتسديد ، فهو يتولى أمورهم ويصلح شئونهم ، ويثيبهم على حسب تأثير الإسلام فى قلوبهم ، ويجازيهم بالحسنى .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؟ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

شرح المفردات

ود الشيء: أحبه ، طائفة: أى جماعة وهم الأحبار والرؤساء ، والآيات هنا ما يدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتلبسون: أى تخلطون ، وجه النهار: أى أوله تقول أتيته بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار ، آمن له صدقه وسلم له ما يقول كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » والفضل : الزيادة ، والمراد به هنا النبوة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن من دأب أهل الكتاب أن يعرضوا عن الحق بعد أن يتبين لهم ، ولا يجدى معهم الدليل والبرهان ، فدعوتهم إلى دين الإسلام الذى كان عليه إبراهيم والأنبياء بعده لا تجد منهم آذانا صاغية ، ولا قلوبا واعية .

ذكر هنا شأنا آخر لهم ، وهو أنهم كانوا أشد الناس حرصا على إضلال المؤمنين فلا يدعون فرصة إلا انتهزوها بالتفنن فى إلقاء الشبه فى نفوس المؤمنين ، وقد كان النزاع بالغا أشده بين الفريقين ، ولا غرابة فى ذلك ، فإن الدعوة إلى هذا الدين الجديد وجدت مقاومة من أهل الكتاب ومن المشركين .

أما أهل الكتاب فلأن فيه هدما لدينهم كما يزعمون ، وأما المشركون فلأن للإلف والعادة سلطانا على النفوس ، وهذه الدعوة دكت حصون المعتقدات التى توارثوها عن أسلافهم الغابرين ، ووجدوا عليها آباءهم من قبل كما حكى الله عنهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذا إلى اليهودية .

الإيضاح

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) أى أحبت طائفة من الأحبار والرؤساء أن يوقعوكم فى الضلال ، بإلقاء الشبهات التى تشككم فى دينكم ، وتردكم إلى ما كنتم عليه من الكفر .

(وما يضلون إلا أنفسهم) إذ أنهم بعنايتهم بالإضلال ، واشتغالهم به ينصرفون عن النظر فى طرق الهداية ، ويغضون أبصارهم عما أوتيه النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات الدالة على نبوته ، فهم يعبثون بعقولهم ، ويفسدون فطرتهم باختيارهم .

(وما يشعرون) أى وما يفطنون إلى سوء حالهم ، وأنهم ألغوا عقولهم ، فلم تفكر فى الحجج التى آتاها الله لنبيه ، ولم تنظر إلى نور الحق الساطع الذى يهدى صاحبه إلى الصراط المستقيم .

وفى نفى الشعور عنهم نهاية الذم والاحتقار لهم .

(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟) أى لم تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم تشهدون بصحتها ، بما جاء فى كتبكم من نعته والبشارة به .

(يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) أى لم تخلطون الحق الذى جاء به النبيون ، ونزلت به كتبهم من عبادة الله وحده ، والبشارة بنبى من بنى إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة ـ بالباطل الذى لفقه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة ، وتجعلون ذلك دينا يجب اتباعه كما جاء فى آية أخرى « يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

(وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أى وتكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهو مكتوب عندكم فى التوراة والإنجيل ، وأنتم تعلمون أنكم إنما تفعلون ذلك عناداً وحسداً .

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) .

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن الصيف وعدىّ بن زيد والحرث بن عوف ، بعضهم لبعض ، تعالَوْا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدْوَةً ونكفر به عشيَّة ، حتى نَلْبِس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله فيهم ـ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ـ إلى قوله واسع عليم

ومقصد هذه الطائفة أن تفسد الناس فيقولوا لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، إذ ليس من المعقول أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرجع عنه بلا سبب ، وليتهم وقف الأمر بهم إلى حد القول ، لكنهم قد فعلوا ذلك .

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : صلت يهود مع محمد صلاة الصبح ، وكفروا آخر النهار مكرا منهم ، ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه

وليس بالغريب منهم أن يلجئوا إلى مثل هـذه الحيلة ، إذ هم يعلمون أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه ، يرشد إلى هذا قول هِرَقْلَ صاحب الروم لأبى سفيان حين سأله عن شئون محمد صلى الله عليه وسلم عند ما دعاه إلى الإسلام : هل يرجع عنه من دخل فى دينه ؟ فقال أبو سفيان (لا) .

وقد حذر الله نبيه مكر هؤلاء ، وأطلعه على سرهم ، كيلا تؤثر الحيلة فى قلوب ضعفاء المؤمنين ، ولأنهم إذا افتضحوا فى هذه الحيلة لا يقدمون على أمثالها ، ويكون ذلك وازعا لهم .

وفى هذا إنباء بالغيب فيكون معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) هـذا من كلام اليهود الذين حصروا الثقة بأنفسهم ، زعما منهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم ، بل لقد تعالوا وحقروا جميع الطوائف ، وجعلوا أن كل ما يصدر منهم حسن ، وما يصدر من سواهم قبيح .

وخلاصة المعنى — ولا تومنوا هـذا الإيمان الظاهر الذى أتيتم به وجه النهار إلا لمن كان تابعاً لدينكم أولا ، وهم الذين أسلموا منهم ، ومقصدهم من ذلك رجوعهم عن إسلامهم ، لأنهم كانوا راغبين فيه جد الرغبة ، طامعين فيه ، فلهم من إسلامهم حنق وغيظ عظيم .

(قل إن الهدى هدى الله) أى ليس الهدى مقصوراً على شعب معين أو واحد بذاته ، بل الله سبحانه يهدى من يشاء من عباده على لسان من يريد من أنبيائه ، ومن يهد الله فلا مضل له ، فكيدهم لا يضير من أراد الله به الخير ، بل يحبط تدبيرهم له .

(أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عنـد ربكم) هذا من كلام اليهود وجملة (قل إن الهدى هدى الله) اعتراضية بينه وبين ما سبقه .

والمعنى — لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم .

وتلخيص المراد — لا تعترفوا أمام العرب أو غيرهم بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبي من غير بنى إسرائيل ، ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ، ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة .

وهذا مبنى على أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبى من العرب بألسنتهم مكابرة وعنادا للنبى صلى الله عليه وسلم لا اعتقادا ، وأنهم كانوا لا يصرحون بهذا الاعتقاد إلا لمن آمنوا به من قومهم ، لما هم عليه من المكر والمخادعة .

وصفوة القول — ولا تظهروا إيمانكم بأن أحدا يؤتى مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم ، بل أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين ، لئلا يزيدهم ذلك ثباتا ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام .

(قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) أى قل لهم : إن الرسالة فضل الله ومنه ، والله واسع العطاء ، وهو العليم بالمستحق ، فيعطيه من هو له أهل .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود قد ضيقوا هذا الفضل الواسع ، بزعمهم حصر النبوة فيهم ، وجهلوا الحكم والمصالح التى لأجلها يعطى النبوة من يشاء .

(يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيهما على حسب مشيئته ، لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل ، فهو يبعث من يشاء نبيا ، ويبعثه رسولا ، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه بمزيد فضله ، وعظيم إحسانه ، لا بعمل قدمه ، ولا لنسب شرفه ، فالله لا يحابى أحدا لا فردا ولا شعبا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

شرح المفردات

تأمنه من أمنته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنته بكذا وعلى كذا، والمراد بالقنطار العدد الكثير ، وبالدينار العدد القليل ، والأميون هم العرب ، والسبيل المؤاخذة والذنب ، وبلى كلمة تقع جوابا عن نفى سابق لتثبته ، والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان لالتزام من طرفين يقال عاهد فلان فلانا عهدا ، ويشترون أى يستبدلون ، والمراد بالعهد عهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون ، والمراد بالأيمان الأيمان الكاذبة ، والثمن القليل هو العوض الذى يأخذونه أو الرّشا ، وجعل قليلا لأن كل ما يفوت الثواب ويوجب العقاب فهو قليل ولا خلاق لهم أى لا نصيب لهم ، ولا يكلمهم الله : أى يغضب عليهم ، ولا ينظر اليهم : أى يسخط عليهم ويستهين بهم ، ولا يزكيهم أى لا يثنى عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه خيانة أهل الكتاب فى الدين ، وكيدهم للمسلمين ، ليرجعوا عن دينهم ، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها ، زعما منهم أنهم شعب الله المختار ، وأن الدين الحق خاص بهم لا يعدوهم إلى شعب آخر ، ولا إلى أمة أخرى .

أردف ذلك بذكر حال طائفة أخرى منهم تخون الأمانات وتستحل أكل أموال الناس بالباطل ، تأويلا للكتاب ، وغرورا فى الدين .

الإيضاح

(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) أى ومن أهل الكتاب طائفة تشاكس المسلمين وتكيد لهم ليرجعوا عن دينهم ، ومنهم طائفة أخرى تستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم زعما منهم أن الكتاب لم ينههم إلا عن خيانة إخوتهم من بنى إسرائيل.

والخلاصة — أن أهل الكتاب طائفتان :

(١) طائفة تؤمَن على الكثير والقليل كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفاً ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه .

(٢) طائفة أخرى تخون الأمانة ، فلو استودعتها القليل جحدته ولا تؤديه إليك إلا إذا أدمت الوقوف على رأسها ملحّا فى المطالبة ، أو لاجئا إلى التقاضى والمحاكمة .

ومن هؤلاء كعب بن الأشرف استودعه قرشى دينارا فجحده .

ثم بين السبب فى فعلهم هذا فقال :

(ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) أى إن ذلك الترك لأداء الأمانة من قِبَل أنهم زعموا أنه لا تبعة ولا ذم فى أكل أموال العرب .

وخلاصة هذا — أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له ، بل هو مبغض عنده محتقر لديه ، فلا حقوق له ، ولا حرمة لماله ، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه ، ولاشك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين واحتقار المخالف الذى يستتبع اهتضام حقوقه .

روى ابن جرير أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم .

فرد الله عليهم بقوله :

(ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أى وهم يعلمون كذبهم فى ذلك ، لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ، ولا أكل أموالهم بالباطل ، وهم يعلمون ذلك حق العلم ، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ، ولجئوا إلى التقليد ، وعدوا كلام أحبارهم دينا ، وهؤلاء قالوا فى الدين بالرأى والهوى ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ليؤيدوا آراءهم ، وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدّعون .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (ومن أهل الكتاب — إلى قوله ليس علينا فى الأميين سبيل) قال النبى صلى الله عليه وسلم « كذب أعداء الله ، ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » .

(بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) أى بلى عليكم فى الأميين سبيل ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل ، أو باعك بثمن مؤجل أو ائتمنك على شىء وجب عليك الوفاء به ، وأداء الحق له فى حينه دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب ، أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهَد ، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له ، ولا يجب الوفاء لغيره .

والعهد ضربان :

(١) عهد المرء لأخيه فى العقود والأمانات كما تقدم .

(٢) عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله .

واليهود لم يفوا بشى منهما ، إذ لو وفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ،

واتبعوا النور الذى أنزل معه ، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه .

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد المتقين الإخلاف والغدر ـ محبته تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا إيماء إلى أن الوفاء بالعهود ، و إتقاء الإخلاف فيها وفى سائر المعاصى والخطايا ، هو الذى يقرب العبد من ربه ، و يجعله أهلا لمحبته .

أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله ، وفى هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى ، وهى الدعامة الأساسية فى كل دين قويم .

(إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) أى إن الذين يستبدلون بعهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه و يتعاقدون ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، و يتقوه فى جميع الأمور ، و بما حلفوا عليه من قولهم لنؤمنن به ولننصرنّه ـ ثمنا قليلا هو العوض أو الرّشا أولئك لانصيب لهم فى منافع الآخرة ونعيمها ، و يغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ولا يثنى عليهم يوم القيامة ، ولهم عذاب هو الغاية فى الألم .

قال القفال : هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه فى الدنيا ، فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه ، و يقول لا أكلمك ولا أرى وجهك ، و إذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل اه .

وصفوة القول ـ أن الله توعد الناكثين للعهد ، المخلفين للموعد بالحرمان من النعيم و بالعذاب الأليم ، و بأنهم يكونون فى غضب الله ، بحيث لا ترجى لهم رحمة ، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة .

ولم يتوعد الله مرتكبي الكبائر من الزناة وشاربي الخمر ولاعبي الميسر وعاقّ الوالدين بما توعد به ناكثي العهود وخائني الأمانات ، لأن مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد التي لأجلها حرمت تلك الجرائم .

فالوفاء بها آية الدين البينة ، والمحور الذي تدور عليه مصالح العمران ، فمتى نكث الناس في عهودهم زالت ثقة بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وأساس النظام .

والإيمان بالله لايجتمع مع الخيانة والنكث بالعهد ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعله علامة النفاق فقال: «آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولادين لمن لاعهد له » .

فما بال كثير من المسلمين حتى المتدينين منهم ، استهانوا بالعهود ، وأصبحوا لايحفظون الإيمان ، ويرون ذلك شيئا صغيرا ، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد ويكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها ، لعدم الإلف والعادة فقط ، مع أنها دون ذلك عند الله كما تدل عليه هذه الآية :

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في أبي رافع ولُبابة بن أبي الحُقَيق وكعب بن الأشرف وحُيَيّ بن أخطب ، حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرها ، وأخذوا على ذلك الرشا .

وروى البخاري وغيره أن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدنيها ، فقدته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألك بينة ؟ قلت لا ، فقال لليهودي احلف ، فقلت يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي ، فأنزل الله (إن الذين يشترون بعهد الله) الآية .

قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة لأن يكون هذا سبب النزول ، أو ذاك ، والعمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

شرح المفردات

ليّ اللسان بالكتاب : فتله للكلام وتحريفه بصرفه عن معناه إلى معنى آخر كما فى الألفاظ التى جاءت على لسان عيسى من نحو ابن الله وتسمية الله أبا له ، وأبا للناس ، فهذا مما لايراد به المعنى الحقيقى ، لكنهم لوّوه ونقلوه إلى المعنى الحقيقى بالنسبة إلى المسيح وحده ، وأوهموا الناس أن الكتاب جاء بهذا .

المعنى الجملى

بين الله تعالى فى هذه الآية حال طائفة ثالثة من أهل الكتاب ، وهم بعض علماء اليهود الذين كانوا حول المدينة ، ومن لفّ لفّهم وسار على طريقهم، افتعلوا نوعا آخر من الخيانة فى الدين بالافتراء على الله مالم يقله .

روى عن ابن عباس أن هذا الفريق هم اليهود الذين قدموا على كعب ابن الأشرف وكان شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الإيذاء له والإغراء به ، غيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذى عندهم وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون الناس أنه من التوراة .

الإيضاح

(وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب) أى وإن طائفة من اليهود ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما ، يفتلون ألسنتهم

بقراءته ، فيميلونها عن المنزل إلى المحرف ، لتظنوا أيها المسلمون أن ذلك المحرف من كلام الله وتنزيله ، وما هو من عند الله ، ولكنه من عند أنفسهم .

وقد جاء فى كتب السيرة والحديث ـ أن اليهود كانوا إذا سلموا على النبى صلى الله عليه وسلم يمضغون كلمة (السلام) فيخفون اللام ، ويقولون (السام عليكم) غير مفصحين بالكلمة ، لأنهم يريدون معنى السام وهو الموت .

وجاء فى سورة النساء قوله تعالى : « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ » فهؤلاء وضعوا (غير مسمع) مكان (لا أسمعت مكروها) التى تقال عادة عند الدعاء (وراعنا) مكان (انظرنا) التى يقولها الناس لمن ينتظرون معونته ومساعدته .

وإنما قالوا (غير مسمع) لأنها قد تستعمل فى الدعاء على المخاطب بمعنى لا سمعت وقالوا (راعنا) لأن هذه الكلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها .

ثم أكد ما سبق بقوله .

(ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) أى إنهم كاذبون فيما يقولون ، وفى هذا تشنيع عليهم بأن الجرأة قد بلغت بهم حدا عظيما ، فهم لم يكتفوا بالتعريض والتورية بل يصرحون بنسبته الى الله كذبا لعدم خوفهم منه ، واعتقادهم أنه يغفر لهم جميع ما يجترحون من الذنوب ، لأنهم من أهل ذلك الدين .

وليس ذلك بالغريب عليهم ، فإنا نرى كثيرا من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم من أهل الجنة حتما مهما أصاب من الذنوب لأنه إن لم تدركه الشفاعة أدركته المغفرة ، ويحلى اعتقادهم ذلك قولهم (أمة محمد بخير) .

فالمسلم فى نظرهم من اتخذ الإسلام دينا ، وإن لم يعمل بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله من صفات المسلمين الصادقين ، بل فعل فعل الكافرين والمنافقين .

(ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أنهم كاذبون ، وهذا تسجيل عليهم بأن ما افتروه على الله كان عن عمد لا عن خطأ .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ (٨٠)

شرح المفردات

البشر: الإنسان ذكرا كان أو أنثى ، واحدا كان أو جمعاً، والحكم: الحكمة وهى فقه الكتاب ومعرفة أسراره ، وذلك يستلزم العمل به ، والعباد واحدهم عبد بمعنى عابد ، والعبيد جمع لعبد بمعنى مملوك ، وهو لا يمتنع أن يكون لغير الله ، والربانيين واحدهم ربانى وهو كما قال سيبويه المنسوب إلى الرب ، لأنه عالم به مواظب على طاعته ، كما يقال رجل إلهى إذا كان مقبلا على معرفة الإله وطاعته ، روى أن محمد ابن الحنفية قال يوم مات ابن عباس : اليوم مات ربّانى هذه الأمة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف افتراء اليهود على الله الكذب ، ونسبتهم إليه ما لم يقله ـ أردف ذلك بذكر افترائهم على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

أخرج ابن إسحق وغيره عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القُرَظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه

وسلم وقد دعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل نصرانى من أهل نَجْرَانَ : أو ذاك تريد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثنى الله ، ولا بذلك أمرنى فأنزل الله الآية .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال : بلغنى أن رجلا قال يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال لا ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله تعالى فأنزل الله (ما كان لبشر) الآيتين .

الإيضاح

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) أى لا ينبغى لأحد من البشر أن ينزل الله عليه كتابه ، ويعلمه فقه دينه ومعرفة أسراره ، ويعطيه النبوة ، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله ، لأن من آتاه الله ذلك فإنما يدعوهم إلى العلم به ، ويحثهم على معرفة شرائع دينه ، وأن يكونوا القدوة فى طاعته وعبادته ، ومعلِّمى الناس الكتاب .

ومعنى قوله من دون الله أى متجاوزين ما يجب من إفراده تعالى بالعبادة ، فإن العبادة الصحيحة لا تتحقق إلا إذا أخلصت له وحده ، ولم تشبها شائبة من التوجه إلى غيره كما قال تعالى : « قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي » .

ومن دعا إلى عبادة نفسه فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون الله وإن لم ينههم عن عبادة الله ، بل وإن امرهم بعبادة الله .

ومن جعل بينه و بين الله واسطة فى العبادة كالدعاء ، فقد عبد هذه الواسطة من دون الله ، لأن هذه الواسطة تنافى الإخلاص له وحده ، وحين ينتفى الإخلاص تنتفى العبادة ، ومن ثم قال تعالى : « فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلاَ لِلهِ الدِّينُ

الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » الآية .

فتوسلهم بالأولياء جعله تعالى يقول إنهم اتخذوا من دونه أربابا ، ويقول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه ، وفى رواية : فأنا منه برىء ، هو للذى عمله ، رواه مسلم وغيره .

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى مناد : من أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك رواه أحمد .

(ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى ولكن يأمرهم النبى الذى أوتى الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو ، ولا التوسل بشخصه ، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك ، وهى تعليم الكتاب ودراسته ، فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الإنسان ربّانيا مرضيا عند الله ، إذ العلم الذى لا يبعث على العمل لا يعد علما صحيحاً ، ومن ثم استغنى بذكره عن ذكر التصريح بالعمل .

(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله ، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ، ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا ، ومثال ذلك أن تقول : ما كان لمحمد أن أكرمه ، ثم يهينني ويستخف بى ، وقد نقل عن مشركى العرب عبادة الملائكة ، وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله فجاء الإسلام فبين أن هذا مخالف لما جاء به الأنبياء من الأمر بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له والنهى عن عبادة غيره ، ومن ثم قال :

(أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) أى أيأمركم بعبادة الملائكة والسجود

للأنبياء ، بعد توحيدهم لله والإخلاص له ، إذ لو فعل ذلك لكفر ، ونزعت منه النبوة والإيمان ، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله ، فإن الله لا يؤتى وحيه إلا نفوسا طاهرة ، وأرواحا طيبة ، فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله .

وأثر عن على كرم الله وجهه أنه قال : قصم ظهرى رجلان ، عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، لأن العالم ينفرّ الناس عن العلم بتهتكه ، والجاهل يرغّب الناس فى الجهل بتنسكه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع» .

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ؟ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

شرح المفردات

الميثاق العهد المؤكد الموثّق ، وهو أن يلتزم المعاهد (بكسر الهاء) للمعاهد (بفتحها) أن يفعل شيئاً ويؤكد ذلك بيمين أو بصيغة مؤكدة من ألفاظ المعاهدة أو المواثقة ، أقررتم من قرّ الشىء إذا ثبت ولزم قرارة مكانه ، وأخذتم أى قبلتم كما جاء نحوه فى قوله تعالى : « إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ » والإصر العهد المؤكد الذى يمنع صاحبه من التهاون فيما التزمه وعاهد عليه .

المعنى الجملى

سبقت هذه الآيات كسابقتها لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتعداد أشياء معروفة عند أهل الكتاب ، قطعا لعذرهم ، وإظهارا لعنادهم ، ودحضاً لمزاعمهم ، وإزالة لشبهات من أنكر منهم بعثة نبى من العرب .

وهذه الحجة التى تقررها هـذه الآيات من الحجج التى تفند تلك الترّهات والأباطيل التى يدعونها ، وهى أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع النبيين وعلى أتباعهم بالتبع لهم ، بأنهم مهما عظمت المنة عليهم بما آتاهم من كتاب وحكمة ، فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يرسل بعدهم مصدقا لما معهم ، وأن ينصروه نصرا مؤزّرا ، وأن من تولى بعد ذلك كان من الفاسقين .

الإيضاح

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) أى واذكر لهم وقت أخذ الله الميثاق من النبيين ، أنهم كلما جاءهم رسول من بعدهم مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، مهما كانوا قد أوتوا من كتاب وحكمة ، لأن القصد من إرسال الأنبياء واحد ، فيجب أن يكونوا متكافلين متناصرين ، فإذا جاء واحد منهم فى زمن نبى آخر آمن به السابق ونصره بما استطاع ، ولا يستلزم ذلك نسخ شريعة الأول ، إذ المقصود تصديق دعوته ، ونصره على من يؤذيه ويناوئه .

فإن تضمنت شريعة الثانى نسخ شىء من شريعة الأول وجب التسليم له ، وإلا صدّقه فى الأصول التى هى واحدة فى كل دين ، ويؤدى كل منهما مع أمته العبادات والمناسك التفصيلية ، ولا يعد هـذا اختلافا وتفرقا فى الدين ، فمثل هذا قد يأتى فى الشريعة الواحدة ، ففى كفارة اليمين أو غيرها يكفر شخص بالصيام ،

وآخر بإطعام الطعام ، وما سبب هـذا إلا حال الشخصين ، فكل منهما أدى ما سهل عليه .

ألا ترى أن الملك إذا أرسل أميرين فى عصر واحد إلى ولايتين متجاورتين ، وجب على كل منها نصر الآخر حين الحاجة مع اتفاقهما فى السياسة العامة للدولة .

وقد يكون بين الولايتين اختلاف فى طباع الأهالى واستعدادهم ، وفى حال البلاد فى اليسر والرخاء ، فيقتضى ذلك اختلاف تفاصيل الالتزامات ، فتكون الضرائب كثيرة فى إحداهما قليلة فى الأخرى ، والقوانين صارمة فى واحدة ، وسهلة هينة فى الثانية ، وكل من العاملَيْن يعمل للمصلحة العامة للدولة .

وهكذا حال النبيين يؤمن كل منهما بما جاء به الآخر مع الموافقة فى الأصول دون الفروع ، كما آمن لوط بما جاء به إبراهيم وأيده فى دعوته وقد كان فى عصره .

أما إذا بعث الله النبيَّين فى أمة واحـدة فإنهما يكونان متفقين فى كل شىء كما حدث لموسى وهرون عليهما السلام ، وبهذا تفهم معنى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم بالـكتب السابقة ، وبمن جاء بها من الرسل ، وليس المعنى أن تفاصيل شريعته توافق تفاصيل شرائعهم .

وفى الآية إيماء إلى أنه لاينبغى أن يكون الدين مصدر العداوة والبغضاء ، كما فعل أهل الـكتاب حين عادَوُا النبى صلى الله عليه وسلم ، وكادوا له بعد أن دعاهم إلى كلمة سواء ، ولم يكن منهم إلا الصد والإعراض والـكيد والجحود .

وصفوة القول — أنكم يا أهل الـكتاب ملزمون باتباع محمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بشريعته بمقتضى الميثاق الذى أخذ على كل من موسى وعيسى — أنه إذا جاء نبى بعده ، وصدق بما معه يؤمن به وينصره .

وإيمانكم بموسى أو عيسى يقتضى التصديق بكل ما يؤمن به كل منهما .

(قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟) أى قال الله تعالى للنبيين : أأقررتم بالإيمان والنصر له ، وقبلتم العهد على ذلك .

(قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) أى قالوا أقررنا بذلك ، قال الله تعالى : ليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم شاهد عليكم ، لايعزب عن علمى شىء .

وهذا الحوار لتثبيت المعنى وتوكيده على طريق التمثيل ، وليست الآية نصا فى أن هذه المحاورة وقعت ، وهذه الأقوال قيلت وله نظائر كثيرة فى الأساليب العربية

(فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى فمن أعرض بعد أخذ الميثاق على هذه الوحدة ، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ، ولم يؤمن بالنبى المتأخر المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره ، فأولئك الجاحدون هم الفاسقون ، فأهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، خارجون عن ميثاق الله ناقضون لعهده ، وليسوا من الدين الحق فى شىء .

و بعد أن بين أن دين الله واحد ، وأن رسله متفقون فيه ـ ذكر حال منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى أيتولون عن الحق بعد ما تبين و يبغون غير دين الله وهو الإسلام والإخلاص له فى العبادة فى السر والعلن ، وقد خضع لله تعالى وانقاد لحكمه أهل السموات والأرض ، ورضوا طائعين مختارين لما يحل بهم من تصاريف أقداره .

وصفوة القول — أن الدين الحق هو إسلام الوجه لله تعالى ، والإخلاص له ، وأن الأنبياء جميعا كانوا على ذلك ، وقد أخذوا بذلك ميثاقهم على أممهم ، ولكنهم نقضوه ، إذ جاءهم النبى الموعود به يدعوهم إليه فكذبوه .

(و إليه ترجعون) أى و إليه يرجع من اتخذ غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى وسائر الخلق ، وحينئذ يجازون بإساءتهم وترك الدين الحق .

وفى هذا وعيد وتهديد لهم .

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٦)

شرح المفردات

الأسباط : الأحفاد واحدهم سبط وهم أبناء يعقوب الاثنا عشر وذراريهم وخصهم بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم، مسلمون أى مستسلمون منقادون بالطاعة له فيما به أمر وعنه نهى ، والخسران : ذهاب رأس المال ، ويراد به هنا تضييع ما جبلت عليه الفطر السليمة ومن الانقياد لله وطاعته ، والإيمان لغة التصديق إما بالقلب كأن يقول إنسان شيئا ، فتعتقد صدقه ، وإما باللسان كأن تقول له صدقت والإسلام : الانقياد والخضوع ، وقد جعل لهما القرآن معنى خاصا ، فأطلق الإيمان على الإيمان بالله واليوم الآخر وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، بحيث يكون لهذا التصديق سلطان على الإرادة والوجدان ، ويكون من ثمراته العمل الصالح الذى يصل بصاحبه إلى الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، وأطلق الإسلام على توحيد الله والإخلاص له فى العبادة ، والانقياد لما أرشد إليه على ألسنة رسله .

والإيمان والإسلام بهذين المعنيين يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل منهما بالاعتبار ، ومن ثم عدّا شيئاً واحداً فى هذه الآيات ، وبهما يكون الفوز بالنجاة فى الآخرة .

وأما ماجاء فى قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » فقد أريد بالإيمان المعنى اللغوى وهو الثقة واطمئنان القلب وهذا لم يحصل لهم بعدُ ، بدليل أنهم امتنّوا على الرسول

صلى الله عليه وسلم بالإسلام وترك القتال ، ولكن دخلوا فى السلم وترك الحرب والنطق بالشهادتين .

كذلك إطلاق الإسلام على هذا الدين المعروف الذى عليه المسلمون اليوم إطلاق حادث لايعرفه القرآن ولم ينطق به ، وإنما نطق بالإسلام وأراد به الاستسلام والانقياد كما علمت مما سبق ، فمن اتبعه كان مرضيا عند الله ، ومن خالفه كان باغياً لغير دين الله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه ـ ذكر هنا أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به ، وبكتبهم ، وأمته تابعة له فى ذلك .

وخلاصة ذلك — أن الله أخذ الميثاق من النبيين المتقدمين منهم والمتأخرين على الإيمان بالله والكتب المنزلة على أنبيائه .

الإيضاح

(قل آمنا بالله) أى قل آمنت أنا ومن معى بوجود الله ووحدانيته وتصرفه فى الأكوان .

(وما أنزل علينا) وهو القرآن المنزل عليه صلوات الله عليه أولا ، وعلى أمته بتبليغه إليهم .

(وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) أى وصدقنا بأن الله أنزل على هؤلاء وحياً لهداية أقوامهم ، وأنه موافق فى جوهره والمقصود منه لما أنزل علينا كما قال تعالى : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

(وما أوتى موسى وعيسى) من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات .

وخص هذين النبيين بالذكر ، لأن الكلام مع اليهود والنصارى .

(والنبيون من ربهم) أى وما أوتى النبيون من ربهم كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم .

وقدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا ، مع كونه أنزل قبله ـ لأن ما أنزل علينا هو الأصل فى معرفة ما أنزل عليهم ، والمثبت له ، ولا طريق لإثباته سواه .

فما أثبته القرآن الكريم من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالا فيما أجمل ، وتفصيلا فيما فصل ، وكذلك كتبهم ، مع العلم بأن جوهر الدين واحد لدى الجميع ، وهو الإيمان بالله وإسلام القلب له مع العمل الصالح ، والإيمان باليوم الآخر .

(لا نفرّق بين أحد من رسله) فنصدق ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى ، فما مثل الأنبياء إلا مثل الأمراء الأمناء الصادقين يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشئون ولاية من ولاياته ، وإصلاح أحوال أهلها ، وعمل القوانين النافعة لحكمها ، فقد يغير التالى بعض قوانين السابق على حسب ما يرى من تبدل طباع أهلها وعاداتهم ، من شراسة إلى لين ، ومن جهل إلى علم ، ومن بداوة إلى مدنية وحضارة ، وما المقصد من كل هذا إلا عمرانها وبذل الوسع فى سعادة أهلها ، وإيصال الخير إليهم .

(ونحن له مسلمون) أى ونحن منقادون له بالطاعة ، لا نبتغى بذلك إلا التقرب إليه بإصلاح نفوسنا ، وتزكية أرواحنا ، وتطهيرها من أدران الذنوب والخطايا .

وقد افتتحت الآية بالإيمان ، واختتمت بالإسلام والخضوع وهو الثمرة والغاية من كل دين أرسل به نبى ، فقال تعالى :

(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) لأن الدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والانقياد لله تعالى كان رسوما وتقاليد لا تجدى شيئا ، بل تزيد النفوس فسادا ، والقلوب ظلاما ، ويكون حينئذ مصدر الشحناء والعداوة بين الناس

فى الدنيا ، ومصدر الخسران فى الآخرة ، بالحرمان من النعيم المقيم ، والعذاب الأليم .

(وهو فى الآخرة من الخاسرين) لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطر السليمة من توحيد الله والانقياد له كما جاء فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه » وخسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله ، وإخلاص السريرة له كما قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ، وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

شرح المفردات

الظلم : هو العدول عن الطريق الذى يجب سلوكه للوصول إلى الحق ، واللعن الطرد : والإبعاد على سبيل السخط ، والإنظار : الإمهال والتأخير .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حقيقة الإسلام وأنه الدين الذى بعث الله به جميع الأنبياء ، ولا يقبل من أحد غيره ، أردف ذلك بذكر حال الكافرين به ، وجزائهم عند ربهم.

أخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن : أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم ، وأقروا وشهدوا أنه حق ، فلما بعث

من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم .

وقال عِكْرِمة : هم أبو عامر الراهب والحرث بن سويد فى اثنى عشر رجلا رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ، ثم كتبوا إلى أهلهم : هل لنا من توبة ؟ فنزلت الآية فيهم ، وأكثر الروايات على هذا .

الإيضاح

(كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ؟) أى كيف يسلك الله بمثل هؤلاء سبيل المهتدين ، بأثابتهم والثناء عليهم ، وقد كفروا بعد إيمانهم ، و بعد أن شهدوا أن الرسول حق وجاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى بمثلها تثبت النبوة ؟

وشهادتهم أن الرسول حق كانت بمعرفتهم بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا عازمين على اتباعه ، إذا جاء فى زمنهم ، وانطبقت عليه العلامات وظهرت فيه البشارات ، لكنهم بعد أن جاءهم بالبينات ، وظهرت الآيات على يديه كفروا به وعاندوه .

وفى الآية استبعاد لهدايتهم على حسب سنن الله تعالى فى البشر ، و إيئاس للنبى صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، فمن سنن الله تعالى فى هداية البشر إلى الحق أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع إزالة الموانع من النظر فيها على الوجه الذى يؤدى إلى المطلوب ، وقد مكن لهم الله من كل هذا من قبل ، ومن ثم آمنوا به .

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن الله لا يهدى أمثال هؤلاء الظالمين لأنفسهم الجانين عليها ، لأنهم تنكبوا عن الطريق القويم ، وتركوا هداية العقل ، بعد أن ظهر نور النبوة ، وعرفوه بالبينات .

(أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) أى هؤلاء

يستحقون سخط الله وغضبه ، وسخط الملائكة والناس ، إذ هم متى عرفوا حقيقة حالهم لعنوهم ، لأنها مجلبة للعن بطبعها لكل من عرفها ، كما قال تعالى : « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » .

(خالدين فيها) أى خالدين فى اللعنة مسخوطاً عليهم إلى الأبد .

(لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أى لاينقصون من العذاب شيئاً ، ولا هم يمهلون لمعذرة يعتذرون بها ، لأن سببه ما ران على قلوبهم من ظلمات الجحود والعناد ، وسخط الله وغضبه ، وهو معهم لايفارقهم أينما كانوا .

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) أى إلا الذين تابوا من ذنوبهم ، وثابوا إلى ربهم ، وتركوا ذلك الكفر الذى دنسوا به أنفسهم نادمين على ما أصابوا منه ، وأصلحوا نفوسهم بصالح الأعمال التى تغذى الإيمان وتمحو من صفحة القلب ما كان قد ران عليها من ذميم الأخلاق والصفات .

وفى هذا إيماء إلى أن التوبة التى لا أثر لها فى العمل لايعتد بها فى نظر الدين ، إذ كثير من الناس يظهرون التوبة بالندم والاستغفار والرجوع عن الذنب ، ثم لايلبثون أن يعودوا إلى مثل ما كانوا قد اجترحوا من السيئات ، لأن التوبة لم يكن لها أثر فى نفوسهم ينبههم إذا غفلوا ، ويهديهم إلى اتخاذ الطرق الموصلة لإصلاح شئونهم ، وتقويم المعوج من أمورهم ، فإذا هم فعلوا ذلك نالهم من مغفرة ربهم ما يؤهلهم لدخول جنته ، والفوز برحمته .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ

يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

المعنى الجملى

الكافرون أصناف ثلاثة :

(١) الذين يتوبون توبة صحيحة مقبولة ، وهم الذين ذكرهم الله فى الآية السالفة التى ختمها بقوله : « إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا » .

(٢) الذين يتوبون توبة غير مقبولة وهم المذكورون فى قوله: «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ».

(٣) الذين يموتون على الكفر من غير توبة وهم من ذكروا فى الآية الأخيرة .

الإيضاح

(إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) المراد بالذين كفروا هم أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدوا أنه حق قبل مبعثه ، ثم كفروا به بعد البعث ، ثم ازدادوا كفرا بالإصرار والعناد والصد عن سبيل الله وبالحرب والكفاح ، فالكفر يزداد قوة واستقرارا وتمكنا بالعمل بما يغميه ويقويه من الأعمال التى يقاوم بها الإيمان ، والإيمان كذلك .

هؤلاء لن تقبل لهم توبة ، لأن الشر قد تغلغل فى نفوسهم وتمكن فيها الكفر فإذا أرادت التوبة وجدت من الموانع ما يحول بينها وبين قبول الحق والخير .

وظاهر الآية يخالف ما صرح به القرآن فى غير موضع ، كقوله فى الآية السابقة إلا الذين تابوا ، وقوله : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » .

ولكن بالتفسير الآتى يتضح المعنى ـ ذاك أنه تعالى بعد أن بين حكم من كفر، وأنه أهل للعن والطرد إلا إن تاب ، ذكر هنا أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة حتى كأنها لم تكن ، ويكون المعنى فى هذه الآية

وما قبلها إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم ، لأن نفوسهم قد توغل فيها الشرك ، وتمكن فيها الكفر وأحاطت بها خطيئتها وضلت على علم ، فإذا أرادت التوبة وجدت ما يحول بينها و بين قبول الحق والخير ، إلا إذا أحست النفس بألم الذنب ، فيحملها ذلك على تركه ومحو أثره المدنس لها بعمل صالح يحدث فيها أثرا مضاداً للأثر الأول .

و بهذا تؤهل صاحبها للمغفرة وترك العقوبة على الذنب ، إذ تكون النفس قد زكت وطهرت من الأدناس كما قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وما مثل ذلك إلا مثل الثوب الأبيض تصيبه بعض الأوساخ ، فيبادر صاحبه إلى غسله ، فينظُفُ و يزول أثر ذلك الدنس .

ولكن إذا تراكمت عليه الأقذار مدة طويلة حتى تخللت جميع خيوطه ، وتمكنت منها تعذر تنظيفه و إعادته إلى حاله الأولى .

و بين هذه الحال وما قبلها مراتب متفاوتة .

وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » .

(وأولئك هم الضالون) أى إن هؤلاء المتقلبين فى الكفر هم المتمكنون من الضلال المخطئون سبيل الحق والنجاة ، لا ترجى لهم هداية ، ولا تقبل منهم توبة .

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) ملء الشىء (بالكسر) مقدار ما يملؤه ، أى إن هؤلاء الذين يقيمون على الكفر و يعملون أعمال الكفار حتى يدركهم الموت على هذه الحال ـ فلن يقبل من أحدهم

ملء الأرض ذهباً إذا كان قد تصدق به فى دنياه ، ولا يفيد ذلك فى نجاته من عذاب النار ، لأن الكفر يحبط أعماله ، ويمحو كل حسناته ، فمن لم تزكُ نفسه فى الدنيا ، وتسمُ عما يكدرها من ظلمات الكفر وأوضار الشرك ـ فلن ينفعها يوم مناقشة الحساب عمل وإن جلّ ، ولا فضيلة وإن عظمت ، إذ المعول عليه فى ذلك اليوم هو الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح الذى يرقى بصاحبه إلى حظيرة القدس فى جوار الرب الرحيم .

(ولو افتدى به) أى ولو افتدى به فى الآخرة لايقبل منه أيضا على تقدير أنه يملكه ، ويريد أن يجعله وسيلة النجاة والمنقذ من العذاب ، كما يعطى الناس الرشا للحكام الظالمين ليزيلوا عنهم ما قد يحل بهم من العذاب .

ونحو الآية قوله تعالى: « فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ذاك أن النجاة فى هذا اليوم لا تكون بمال يبذل ، ولا بجاه ينفع ، بل جعل أمرها موقوفا على صفاء النفس واستعدادها ، فمن زكاها بالإيمان مع العمل الصالح فقد أفلح ، ومن دسّاها بالكفر وسيئ الأعمال فقد خاب وخسر .

وصفوة القول — أنه لا طريق للافتداء على أىّ حال لو أريد .

ويرى بعض المفسرين أن الكلام من قبيل التمثيل ، إذ لا حاجة إلى الذهب ولا إلى إنفاقه ، إذ الأشقياء لا نصير لهم ينفق عليهم ، والأولياء فى غنى بفضل الله ورحمته عمن ينفق عليهم .

(أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) يدفعون العذاب عنهم أو يخففونه كما كانوا ينصرونهم فى الدنيا إذا حاول أحد أذاهم أو إيقاع المكروه بهم .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

شرح المفردات

نال الشيء نيلا : إذا أصابه ووجده ، يقال نال العلم إذا وصل إليه واتصف به ، والبرّ : ما يكون به الإنسان باراً ، وماتحبون هو نفائس الأموال وكرائمها ، لأن شأنها عند النفوس عظيم ، فكثيراً ما يخاطر الإنسان بنفسه ، ويستسهل بذل روحه للدفاع عن ماله .

المعنى الجملى

بعد أن حاج الله تعالى أهل الكتاب فيما ادّعوه من الإيمان ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة محصورة فيهم لا تعدوهم إلى غيرهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات .

خاطبهم هنا بأن آية الإيمان وميزانه الصحيح هو الإنفاق فى سبيل الله من المحبوبات ، مع الاخلاص وحسن النية ، ولكنكم أيها المدّعون لتلك الدعاوى آثرتم شهوة المال على مرضاة الله ، ولو أنفق أحدكم شيئاً من ماله فإنما ينفق من أردأ ما يملك وأبغضه إليه ، لأن محبة المال فى قلبه تفوق محبة الله تعالى ، والرغبة فى ادّخاره تعلو الرغبة فيما عند ربه من الرضا والثواب .

فكيف ترجون أن تكونوا من المؤمنين الصادقين وأنتم لا تنفقون ما تحبون ؟

الإيضاح

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) أى لن تصلوا إلى بر الله تعالى بأهل طاعته برضاه عنهم ، وتفضله برحمتهم ، ونيلهم مثوبته ، ودخولهم جنته ، وصرف عذابه عنهم حتى تنفقوا ما تهواه نفوسكم من كرائم أموالكم .

وقد أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا إذا أحبوا شيئا جعلوه لله تعالى .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا بالمدينة ، وكان أحب أمواله إليه بيرْحاء (موضع) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها ، فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال أبو طلحة يا رسول الله : إن أحب أموالى الىّ بير حاء ، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعْها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى ، فقال عليه السلام بَخٍ بَخٍ (كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء) ذاك مال رابح ، وقد سمعتُ ماقلتَ ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقال أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه . وفى رواية لمسلم ، فجعلها بين حسان بن ثابت وأبىّ بن كعب .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن المنكدر قال : لما نزلت هذه الآية جاء زيد ابن حارثة بفرس يقال لها سَبَل لم يكن له مال أحب إليه منها ، فقال هى صدقة ، فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه أسامة ، فكأن زيدا وجد فى نفسه (حزن) فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه قال : أمَا إنّ الله قد قبلها .

فهذا الأثر وما قبله دلائل واضحات على حسن السياسة الدينية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة مايختلج فى القلوب ، فقد رأى أن أبا طلحة وزيدا قد خرجا عن أحب أموالهما إليهما بعاطفة الدين ، فجعل ذلك فى الأقربين ليثبّت قلوبهما ، ويكمل إيمانهما ، ولا يجعل للشيطان سبيلا ينفذ به إلى ما بين الجوانح ، فيندمان إذا هما رأيا أموالهما فى أيدى الغرباء ، إذ كثيرا ما يفارق المرء شيئا محبوبا لديه باختياره لعاطفة الدين ، أو للجود به على غيره ، ثم لا يلبث إلا قليلا حتى يعاوده الحنين إليه ، ومن ثَمَّ كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر عمّال الصدقة باتقاء كرائم الأموال ، والبعد عنها حين جباية الصدقات .

وهناك من الشواهد مايدل على هذا أيضا فقد أخرج عبد بن حُميد عن ابن عمر

قال : حضرتنى هذه الآية (لن تنالوا البر) الآية ، فذكرت ما أعطانى الله تعالى ، فلم أجد أحب إلىّ من مَرْجَانةَ (جارية رومية) فقلت هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله تعالى لنكحتها ، فأنكحتها نافعا (مولى له كان يحبه كأحد أولاده) .

فتأمل وانظر ترأن نفسه قد راودته بعد عتقها على أن يستبقيها له ولا يفارقها ، لولا أن كان مما عوّد نفسه عليه ألا يرجع فى شىء جعله لله ، ومع ذلك جعلها لأحب الناس إليه وهو مولاه .

وعلى الجملة فآثار السلف فى الإيثار وبذل المال ابتغاء مرضات الله كثيرة .

فقد روى أن ابن عمر اشتهى سمكة بمكة وكان قد نقه من مرض ، فبحث عنها فى المدينة فلم توجد ، و بعد مدة وُجدت ، فاشتريتْ بدرهم ونصف الدرهم ، فشُوِيت وجىء بها على رغيف ، فجاء سائل بالباب فقال ابن عمر للغلام : لفها برغيفها وادفعها إليه ، فأبى الغلام فرده وأمره أن يدفعها إليه ، ثم جاء بها فوضعها بين يديه ، وقال كل هنيئا يا أبا عبد الرحمن ، فقد أعطيته درهما وأخذتها ، فقال لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيُّما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه إلا غفر الله له » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخى فلانا كان أحوج منى إليه ، فبعث به إليه فلما وصل إليه قال : إن فلانا كان أحوج منى إليه ، فلم يزل يبعث به كل واحد منهم إلى آخر حتى تناوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول .

وفى هذه الآثار وأمثالها ما ينبغى أن يكون عظة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيقتدى بأولئك الأبرار الطاهرين ، ويجعلهم المُثُل العليا للبذل فى سبيل الله .

(وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم) أى أىّ شىء تنفقونه فى سبيل الله طيبا أو خبيثا فالله مجازيكم به على حسب ما يعلم من نيتكم ، ومن مواقع ذلك فى قلوبكم ،

فربّ منفق مما يحب لايسلم من الرياء ، وربّ فقير معدم لا يجد مايحب فينفق منه ، ولكن قلبه يفيض بالبرّ ، ولو وجد ما أحبه لأنفقه أو أكثره .

وفى هذه الآية ترغيب وترهيب وحث على إخفاء الصدقة ، كى لا يكون للشيطان منفذ إلى قلوب الأبرار الصالحين .

جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصلوات الله على أنبيائه المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من مسوّدة هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة فى رجب المعظم من سنة إحدى وستين وثلثمائة هجرية .

obeikandl.com